محمد متولي الشعراوي

الله والنفس البشرية

اعداد

جمال ابراهيم



« السلسلة النادرة »

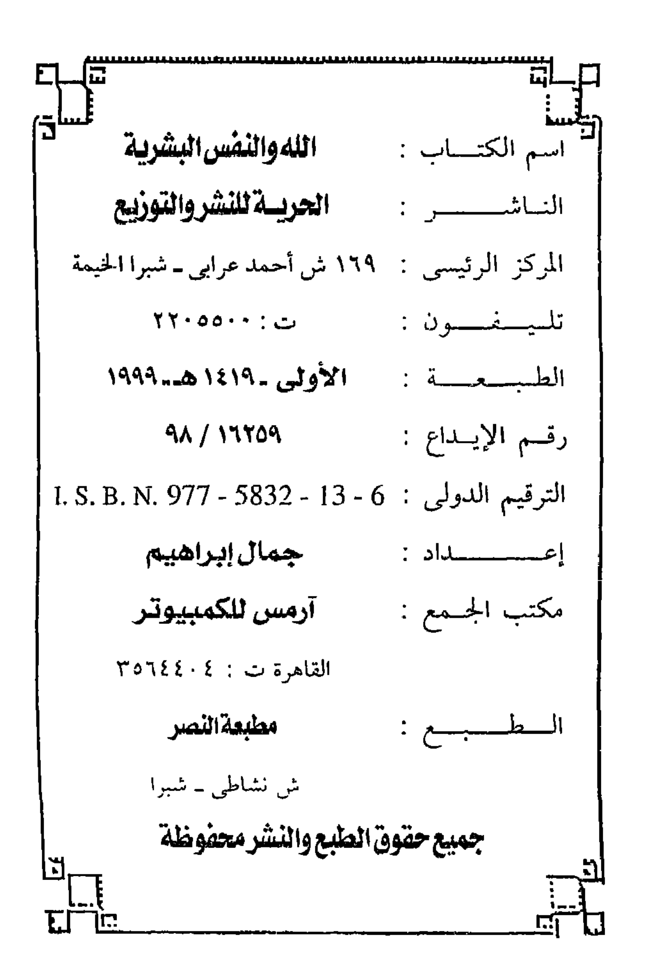
لفضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

الله والنفس البشرية

أعداد : جمال إبراهيم





اسم الكتاب : **الله والنفس البشرية**

الناشر : **الحرية للنشر والتوزيع**

المركز الرئيسى : ١٦٩ ش أحمد عرابى ـ شبرا الخيمة

تليفون : ت : ٢٢٠٥٥٠٠

الطبعة : **الأولى ـ ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩**

رقم الإيداع : **١٦٢٥٩ / ٩٨**

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 5832 - 13 - 6

إعداد : **جمال إبراهيم**

مكتب الجمع : **آرمس للكمبيوتر**

القاهرة ت : ٣٥٦٤٤٠٤

الطبع : **مطبعة النصر**

ش نشاطى ـ شبرا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، المنزل عليه فى الذكر الحكيم ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾.

أحمدك ربى كما علمتنا أن نحمدك...

اخوانى المؤمنين ، وكفى بذلك الوصف تعريفًا تجتمع فيه أقدار الناس فى الحياة ، أحييكم بتحية الإسلام ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأسأل رب العرش ـ سبحانه وتعالى ـ أن يهدينا فإنه من يهديه الله فلا مضل له ، ومن يضلله الله فلا هادٍ لهُ وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير من علم عن الله وآخر من أعلم به ... وبعد .

بين يديك أيها القارئ كتاباً من « السلسلة النادرة » للشيخ « محمد متولى الشعراوى » عليه رحمة الله .

توافرت فى هذه السلسلة جميع الموضوعات التى يحتاج إليها كل مسلم ، فاحرص على اقتنائك إياها لتنتفع بها وأهلك ، لما فيها من الموضوعات والأسئلة الهامة التى تشير إلى الطريق الصحيح ...

ونسأل الله أن ينفعنا بما علمنا ....

والله ولى التوفيق

الناشر

الله والنفس البشرية

إن الإنسان يتصل بالعالم الخارجي بواسطة الفطرة، نحس بها ولكننا لا نفهمها، فنحن حين نحب ونكره، مهما حاولنا تفسير ذلك الإحساس لا نستطيع أن نصل إلى حقيقته، وعندما نولد تبدأ الفطرة عملها قبل الحواس.

يقول فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى حديثه: إن الإنسان فى صلته بالعالم الخارجى يتمتع بما نسميه الحاسة، أو الحواس، فأنت ككائن بشرى حين تتصل بالعالم الذى يحيط بك، فإنك تتصل به عن طريق حواس حددت بخمس هى: أن يسمع الإنسان، ويرى، ويشم، ويلمس، ويتذوق. هذه الحواس نفهم بواسطتها العالم الخارجى ونميز بواسطتها هذا العالم، بل ونعطيه صفاته التى نطلقها عليه، فصفات الألوان مثلا نميزها بحاسة البصر، ونوع الطعام مثلا نعطيه لفظ (الحلو)، ولفظ (المر)، ولفظ (الجيد)، ولفظ (الردئ)، بحاسة الذوق إلى آخر هذا الكلام، إذن فنحن نتصل بالعالم الموجود خارجنا عن طريق هذه الحواس، ولكن ماذا عن عالم ما هو داخل النفس البشرية، وكيف يمكن أن يتم الاتصال بين الإنسان، وما هو موجود فى داخله، هل يتم هذا الاتصال عن طريق الحواس؟ أو عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها بعض الناس البديهيات؟ وبعض الناس لفظ (إلهام خاص)، وبعض الناس ألفاظ أخرى، ولكن المؤكد أن هذا الإحساس الذى يتم بالنسبة لما فى داخل النفس البشرية لا يتم عن طريق الحواس الخمس التى تتصل بها بالعالم الخارجى، وإنما يتم عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها ـ كما قلت ـ إلهام أو إحساس داخلى... إلى آخر هذا.

ولنشرح الموضوع بشئ من التفصيل، نبدأ أولا بالأشياء التى يصل إليها الإنسان عن طريق حواسه التى توصله بالعالم الخارجى، فهو يرى ألوانا مختلفة، ويسمع أصواتا مختلفة، ويلمس أشياء مختلفة، ويتذوق طعاما مختلفا، ويشم روائح مختلفة، هذا هو اتصال الإنسان بالعالم الخارجى، أما اتصاله بما فى داخله فيأتى مثلا عن طريق شعوره بالجوع، إننا لا نرى الجوع، ولا نلمسه، ولا نشمه، ولا

نتذوقه، ولكننا نشعر به، وما ينطبق على الجوع ينطبق على الأشياء الأخرى، مثل الحب والكره مثلا، الإنسان يحب شخصا ما، ويكره شخصا ما، أو شيئا ما، دون أن يكون لذلك سبب حسى معروف.

إذن فهناك أشياء فى داخلنا تسمح لنا بأن نشعر شعورا معينا، هذا الشعور نحس به ونعرفه تماما، ولكننا لا نراه بحواسنا، إن الإنسان مهما قال فى شرح أسباب الحب والكراهية لا يستطيع أن يصل إلى الحاسة التى تسبب الحب، أو التى تسبب الكراهية، فهذه الحاسة لا تدخل ضمن الحواس الخمس التى يتصل بها الإنسان بالعالم الخارجى، أو التى تحدد علاقة الإنسان بالعالم المادى، ومن هنا فإن العلماء حريصون حينما يتحدثون عن الحواس أن يقولوا إن هذه الحواس هى التى توصل الإنسان بالعالم الخارجى، وإن الإنسان له ملكات وغرائز وشعور وإلهام، وأشياء أخرى فى داخله توصله بداخل النفس البشرية، وتؤثر فى هذه النفس.

والذى لا يخضع للمنطق أن نحاول أن ننكر أن فى داخل الإنسان أشياء كثيرة غير الحواس التى توصله بالعالم الخارجى، وأن الإنسان يستطيع أن يتصل بالعالم، بينما ما بداخله يترك بلا اتصال أو إحساس معين، بل الحقيقة أن الإلهام أو الشعور والإحساس بما فى داخل النفس البشرية يوجد قبل إحساس هذه النفس بما حولها من العالم، تلك سنة الخلق، فالطفل الصغير مثلا يحس بالجوع والعطش، ويعبر عنهما بالبكاء قبل أن يستطيع أن يستخدم حواسه فى الاتصال بالعالم الخارجى، وهو يحس بالحنان والدفء، والحب والكره، والقسوة، والرحمة، كل هذه الأشياء توجد فى داخل نفسه مع دقات الحياة الأولى، بينما الحواس قد تنتظر أسابيع أو شهورا قبل أن تستطيع أن تؤدى مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه.

وإذا درسنا هذه الحواس الداخلية نجد أن أقواها هو إحساس الإنسان بوجود الله. هذا الإحساس الذى قد يفتقر إلى شئ من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته، والكون، ووجوده، وكل شئ من هذا النوع، ولكن هذا الإحساس يؤكد وجود قوة داخل الإنسان تدفعه إلى أن يشعر ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى.

أحاسيس النفس:

ولكى أوضح هذه النقطة: أحب أن أقول إن النفس البشرية التى فيها أحاسيس لا نستطيع أن نحللها بدقة، ولا أن نصل إليها لنعرف ما هى، تحس أيضا هذه النفس إحساسا يقينيا بوجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ فاسم الله مثلا هو شئ لا تدركه الحواس الخمس؛ لأنه أكبر من قدرتها، ولكن تدركه حاسة داخل الإنسان، حاسة غير مرئية، ومن هنا فإن كلمة (الله) التى هى فوق قدرة الحواس الخمس، نجد أن الأذن تفهمها عندما تسمعها، ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئا لا يوجد أصلا داخل النفس البشرية، بحيث يكون التصور هنا ليس غريبا تماما على هذه النفس، بل هو معروف لها بشكل قد لا نفهمه نحن، ولا نستطيع أن نحلله، ولكنه معروف، فعندما يذكر لنا أحد اسم الله، فإن الذى يقفز إلى عقولنا هو وجود قوة خارقة، هى التى أوجدت هذا العالم، وأن هذه القوة خارج نطاق العقل، بل وخارج نطاق الحواس، إذن، كيف ندرك وجود هذه القوة؟ وكيف يكون اسمها مألوفا عندنا؟ وهى خارج نطاق الحواس، وخارج نطاق العقل؟ هنا يأتى ما فى داخل النفس، وهو الإلهام، أو الشعور ليقول لنا: إن هذه القوة رغم أنها فوق مستوى العقل والحواس، فإنها موجودة داخل النفس، والنفس تفهم وتحس بوجودها.

وفى العصر القديم بدأ الفلاسفة ـ خصوصا فلاسفة اليونان ـ يبحثون عما وراء المادة ، عما وراء هذا العالم المادى، عن الخلق، وعن القوة التى أوجدت هذا العالم، إلى آخر فلسفة اليونان القديمة، عما وراء المادة، من الذى قال لهم إن هناك شيئا وراء العالم المادى؟ يجب أن يدرس كيف عرفوا أن هناك شيئا خلاف المادة، مع أن الحواس الخمس لا تقول لنا شيئا عن المادة، ونحن هنا لانناقش فلسفة اليونان، وسواء نجحت هذه الفلسفة أو غيرها، أوفشلت، موضوع لا يهمنا فى هذه الحلقة، وإنما الأمر الذى يهمنا أنهم كانوا مدفوعين لينظروا إلى ما وراء الطبيعة، وأنه كانت لديهم أشياء داخل أنفسهم، ليست أشياء حواسية ـ أى لا تخضع للحواس ـ ليفعلوا ذلك.

بل إن الإنسان منذ فجر التاريخ، منذ بـداية خلقه، وهو يبحث عما وراء المادة، يبحث عنه بطرقـه المختلفة، وهو أحـيانا يتخـذ سبيـلا أو آخر لإظهار خضـوعه أو عبـوديته لهذه القـوة التى هى وراء المادة، ولكن المهم فى هذا كله أن هناك شـعورا داخليا فى النـفس البشرية، يقـول لها إن هناك شيـئا وراءالطبـيعة، إن هناك قـوة ما وراء هذا العالـم، وأن هذه القـوة هى قوة عظيمـة وخارقة، هناك شـعور داخلى فى كل نفس بشرية بوجود الله، تلك القوة التى هى وراء هذا الكون، هناك شئ داخل النفس البشـرية يجعلها تدرك أو تفـهم أن العالم المادى الذى يرونه لا يمكن إلا أن تكون وراءه قوة خارقة قادرة منظمة قوية.

العالم والمادة:

ولكن هذا العـالـم المادى نفسـه الذى نعيش فـيـه، لا يمكن أن يخلق فـينا هذا الشعور، لا يمكن أن يقـول لنا إذا استخدمنا حواسنا فقط إن هناك قـوة قادرة قاهرة خلف كل هذا، إذن لابد أن هـناك قـوة أخرى خـلاف هـذا العـالم المادى هى التى وضعت فينا هذاالتصور، وهو أن هناك شيئا خلاف المادة يجب أن يتم البحث عنه، ومن هنا بدأ البحث والفكر والاتجـاه نحو هذه القوة، ولو لـم يكن هناك شـعور فى داخلنا، وإحساس قـوى بوجود هذه القوة لما بحثنا، ولما وجد كل هذا البـحث عبر تاريخ البشرية.

على أن هناك مـلاحظة أخـرى أحب أن أسجلهـا: هى أن الإنسـان حين يصل إلى مرحلة التـفكير فى وجود الله، أو المرحلة التى يعـقل فيها أن هناك قـوة خارقة وراء هذا الكون، لابد أن تكون قد مرت فترة من عـمره، فالإنسان عادة لا يبدأ فى التفكيـر فى مثل هذه الأمـور، والتحدث عنهـا بعمق دون أن يكون قـد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين على الأقل، ليكون لديه نضج العقل الـكافى لمناقشة أمر عميق كهذا. والسؤال الذى يجب أن يطرح هنا هو: بأى منطق عبد هؤلاء الناس الله قبل الوصول إلـى هذه السن؟ وكيف تفـهموا كل هـذه الفلسفـة التى تحتاج إلـى عقل ناضج، وإلى علم ودراسة وتأمل، حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى أن هناك شيئا وراء المادة؟ ولكننا نجد العقول البسيطة التى لم تقـرأ كتابا واحدا تعرف أن الله موجود،

وتعبده بفـهم، ونجد أولئك الذين لم يناقشوا هذا الموضـوع على الإطلاق، يعرفون وجود الله، ويقومون بعبادته، بل إن أكـثرهم يحس بانسجام فطرى غريب بأن الله ـ سبحانه وتعالـى ـ ووجود الكون شيئان لابد منهما، وأن وجودهمـا حقيقة داخل النفس.

إن هذا الشى نفسه، هذا الـذى يوجد داخل النفس البـشـرية ليؤكـد أن هناك شيـئا وراء المادة، وأن هناك قـوة كبرى وراءهذا الكون، دون أن تـكون قد وصلت إلى سن النضج والدراسـة والفلسـفة التى تؤهلهـا لمناقـشة هذا الموضـوع، هذا فى نفـسه دليل على وجـود الله ـ سـبحـانه وتعـالى ـ فلقـد عبـدوه عن إيمان خلق فى قلوبهم منذ اللحظـة التى يولدون فيـها، وانطلاقـا من هذا الإيمان عندمـا نضجـوا، قادوا عـقولهم إلى التـفكير، وسواء سـارت العقـول فى الطريق السليم، أو ضلت الطريق، فـالإيمان بالله، والبحث عنه، ووجـود شئ فوق العـالم المادى موجـود فى النفس البـشرية بالفطـرة وليس بالعلم، ولو وجد بالـعلم لكان لابد أن يبدأ عندمـا يبلغ الإنسان سن الـنضج فى التفكير، ولو كـان موجودا بالعلم لـكان عندما يصل العلم إلى مرتبة العجز: عَجْزِ العقل البشرى عن الوصول إلى صفات الله وقدراته، لتركت هذه القضية على أساس أنهـا فوق قدرة العقل، ولكن بالرغم من أنها فوق قدرة العقل فـهى قضية مـثارة، وأجهد الناس أنفـسهم فيهـا، كل واحد يحاول أن يصل إلى وجهة نظره حول هذا الموضوع.

ومـعنى هذا الجدل كله الـذى يمضى ولن ينتهى، ومـعنى البـحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادى، معناها أننا نعرف وجود الله بالفطرة، وأنه يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد أن الله موجـود، وإلا لما أنهكت النفس البشرية قواها فى هذا الجدل، ولكان العقل البشرى يعيش مطمئـنا وسعيدا بالعالم المادى الذى خلق فيه، ولا يحاول أن يصل إلى أكثر من ذلك.

□□□

رسالات السماء

إن الذين اتخذوا إلها يعبدونه غير الله، هم الذين وضعوا منهج العبادة حسب أهوائهم وأغراضهم، ولكن رسالات السماء حددت للإنسان طريق العبادة والطاعة، وفرق بين عقل يخضع الخالق لحكمه وأهوائه، وبين إله تخضع له كل العقول وتعجز أمامه.

والإيمان بالله قضية مثارة، أجهد الناس أنفسهم فيها، كل واحد يحاول أن يصل إلى وجهة نظره حول هذا الموضوع، ومعنى هذا الجدل كله الذى يمضى ولن ينتهى، ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادى، معناها أننا نعرف وجود الله بالفطرة، وأنه يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد أن الله موجود، وإلا لما أنهكت النفس البشرية قواها فى هذا الجدل، ولكان العقل البشرى يعيش مطمئنا، وسعيدا بالعالم المادى الذى خلق فيه.

ولكننا إذا نظرنا إلى أولئك الذين يعبدون المادة، نجد أن نفوسهم فى داخلها قلق رهيب، رغم ما يحققونه من نجاح فى العالم المادى، ففى أمريكا والسويد ـ مثلا ـ أعلى نسبة فى الانتحار فى العالم، مع أن هذا يخالف المنطق والعقل، فالذى يقوله المنطق أنه إذا كان العالم ماديا فقط، وحصل هؤلاء الناس على كل ما تستطيع المادة أن تهبهم إياه. لكانوا أسعد الناس نفسا، ولكنهم بشهادة الإحصائيات هم من أشقى شعوب العالم نفسيا، وأكثرها عرضة للجنون، لماذا؟ لأنه يوجد فى داخل النفس البشرية شئ ما يؤرقهم، شئ ما لا يحقق لهم الانسجام بين هذه النفس والكون، شئ ما يحول حياتهم التى فيها كل أنواع الترف إلى جحيم نفسى، ذلك الشئ هو عدم الإيمان، إنه يورثهم أشياء كثيرة، تحطم النفس تحطيما، لماذا؟ لأن الإنسان هنا منسجم مع الكون بحواسه الخمس، التى يتصل بها بهذا الكون المادى، ولكنه ليس منسجما مع نفسه فى فطرتها التى خلقت عليها فى عبادة الله، والإيمان به، ومن هنا فإنه رغم انسجامه مع الدنيا شقى داخل نفسه، لأن

هناك شيئا داخل هذه النفس يؤرقه، لا يعطيه الحياة الآمنة المطمئنة، ذلك الشئ هو الإيمان، بينما نجد أن هناك نفسا بسيطة، لا تعطيها الدنيا كثيرا، ولكنها تعيش فى اطمئنان غريب، يضئ داخلها نور الإيمان بالغد، ولا يدخل إليها ظلام اليأس والقلق لقدرات الله وعظمته، ومن هنا كان لابد أن يعرف الإنسان طريقة عبادته لله عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن هنا نزلت الرسالات السماوية، يقول الله للإنسان: إننى أنا الله، وإذا أردت أن تعبدنى فافعل كذا تدخل جنتى، وإذا عصيتنى وفعلت كذا وكذا فسيصيبك عذابى، وأنا أحدد لك طريق العبادة حتى لا تضل ولا تضيع، كان لابد للرسالات السماوية أن تهبط إلى الأرض، إلى الإنسان لتدله على الخير والشر، والإيمان والفكر، وتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

إرسال هذه الرسالات فى ذاته معجزة، ذلك أن كل من عبد غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم تصله رسالة لتبلغه طريق العبادة، بل هو الذى اخترع هذا الطريق بعقله. فالذين عبدوا الشمس ـ مثلا ـ لم تصلهم رسل من الشمس تقول لهم اعبدونى بطريق كذا وكذا، وافعلوا كذا ولا تفعلوا كذا.

بل هم الذين حددوها حسب أهوائهم، وكذلك الذين عبدوا النار، وكل من عبد شيئا آخر غير الله ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى هو فوق كل القدرات، وفوق كل العقول أرسل الرسالات إلى البشر ليحدد لهم هو الطريقة التى يعبدونه بها. ومن هنا كان الفارق بين عقل يخضع الخالق لحكمه وأهوائه، وبين إله تخضع له كل العقول وتعجز أمامه.

الإنسان وقدرات الكون

« كل القوى التى خلقها الله للإنسان هى أكبر منه كثيرا ولكنها مسخرة لخدمته، فالشمس لا تستطيع أن تقول لن أشرق اليوم، والمطر لا يستطيع أن يتوقف عن مد الأرض بالماء، والرياح لا تستطيع أن تختفى؛ ذلك أن هذه القدرات الهائلة رغم أنها أكبر من البشر، فإنها مسخرة لخدمته ».

وإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أخبر عباده بما يريد أن يعرفوه عنه، حيث إنه ـ سبحانه وتعالى ـ فوق كل العقول، وليس كمثله شئ.

ومن هنا فإن ما ورد فى الرسالات السماوية عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن خلال ما أتاحه الله للعقل البشرى أن يعرفه عنه، وضع الله معجزات فى القرآن تدل على أنه الخالق، وتنبئ الإنسان بأشياء لم تكن متاحة للعقل البشرى وقت نزول القرآن، ولكنها بدأت بعد ذلك بالتدريج تدخل بعلم الله إلى نطاق العقل البشرى، أى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حين أنزل كتابه أراد أن يكون هناك عطاء فيه لكل جيل حتى قيام الساعة. فالقرآن حينما نزل أعطى الذين عاصروه، ثم أعطى الجيل الذى بعده، ثم الجيل الذى بعدهم، ثم جيلنا هذا، ثم بعد ذلك هو سيعطى الأجيال القادمة وكل عطاء مختلف.

ولكن يجب أن نفرق بين شيئين فى الإسلام، الشئ الأول هو: الفرائض وأحكام الدين، والشئ الثانى وهو ما يحتويه القرآن من معجزات وآيات، وأشياء عن الكون، وعن الخلق، وعن كل ما احتواه القرآن من معان جامعة شاملة.

الجزء الأول وهو المناسك، أو طريق العبادات وكيفيتها، هذا الجزء لا تبديل فيه ولا تغيير، ولا تفسير وإعادة تفسير، وإنما يجب أن يؤخذ وينفذ كما أخذ ونفذ، وفسر فى عهد النبى ﷺ ، أى أن الصلاة ـ مثلا ـ لا يجوز لأى فرد مهما بلغ من العلم أن يبدل فيها، وما يقال عن الصلاة يقال عن الصوم، يقال عن كل فروض

العبادة، تلك الفـروض قد أنزلت وفسرت، وتـم بيانهـا للناس وقت نزول الرسالة، وهى تبين لنا كيف نعبد الله كما يريد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعبد.

أمـا الجزء الثـانى ـ وهو عطاء القرآن ـ فكلـما مـر الزمن وجدنا للقـرآن عطاء جديـدا فى أشياء أو حـقائق كـونية كـانت غائبـة عنا، ثم دخلت إلى منطقـة العلم البشرى بإرادة الله، فأصبحنا نعيها ونفهمها، وهنا أجد أن القرآن لا يتصادم أبدا مع حقـائق الكون، ولا يمكن أن ينشأ أى نوع مـن التصادم؛ ذلك لأن الله هـو القائل، والله هو الفاعل، والله هو الخالق.

على أن هناك نقطة الغـيب، أومنطقة الغيب، تلك الـتى اختص الله ـ سبـحانه وتعالى ـ بها نفسه، أو من ارتضى من رسله وعباده، وتلك النقطة هى خارج العقل البشـرى، أو فوق طاقـة هذا العقل، وإذا دخلنا فـيهـا تاهت العقول، وانتـقلت من الواقع إلى الخيال، وهنا تضل وتبتعد عن الحقيقة .

ولقد أجـهد الفـلاسفة أنـفسهم على مـر السنين فى الوصول إلـى وجود الله، محـاولين استخدام العـقل بدلا من الرسالات السمـاوية التى أنزلها الله ـ سبـحانه وتعالـى ـ ومن هنا فإنهم أرادوا أن يسـتخدمـوا العقل فـيمـا لم يخلق له، ذلك أن العقل له وظيفة، أو وظائف فى الحياة، ليس من بينها أن يصل إلى وجود الله بعيدا، أو غير مسـتخدم الرسائل ـ أو الرسالات ـ التى أنزلها الله لعبـاده، فهذه الرسالات قـد وضع فيـها الله ـ سـبحـانه وتعالـى ـ الأدلة وبين فيـها مـا هو فى قدرة العـقل البشرى، منذ يوم خلقه إلى يوم القيامـة، ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا، بأن يقدمـوا للعقل البشرى مـا هو فوق طاقتـه، هذا مستحـيل، فأنت حين تريد أن تجعل إنسانا يفهم شيئا، يجب أن تدخله فى قدرة العقل البشرى أولا، فإذا وصفت له شيئاً غامضا مثلا فإن العقل لا يمكن أن يفهمه، ولكنك لكى تدخل هذا الشئ فى نطاق الفهم العقلى فـأنت تحاول أن تقربه من شئ يفهمه، كـأن تقول مثلا: إنه شئ يشبه الكرة، حينئذ فـإنك نقلت هذا الشئ من خارج نطاق الفهم العقلى إلى داخل هذا النطاق، واسـتطعت أن تجـعل مـحـدثك يفـهم عن أى شئ تتـحـدث، ولو أن الفلاسفـة ألزموا أنفسهم بالمنطق والحقـيقة لما كانت هناك مشـكلة، ولكنهم رفضوا

ذلك، بل أرادوا هم أن يحددوا أشياء لا تدخل فى نطاق الحقيقة والمنطق، باستخدام الخيال الذى لا يعتمد إلا على الهوى، ولقد قال لنا الله فى رسالته هذا هو الطريق إلى عبادتى، وشرحه لنا، وبين لنا الثواب والعقاب، وهذا دليل قوى على وجود الخالق، ذلك أن الذين يعبدون الشمس والأصنام، أو أى شئ غير الله، فإن هذه الأشياء لا ترسل لهم رسالات تقول لهم، أو تبين لهم، أو تعلمهم طرق العبادة ؛ ولذلك لم نسمع عن رسول أرسلته الشمس ليهدى الناس، مع أن الناس عبدوا الشمس، ولم نسمع عن رسول أرسله صنم ليهدى الناس، مع أن الناس عبدت الأصنام، والأحجار، والحيوانات، وكل شئ فى هذه الدنيا عبد بطرق ابتدعها الناس أنفسهم حسب أهوائهم.

وإذا حكمنا المنطق وحده، والعقل وحده، فإن الاثنين معا لا يقولان لنا أن ندخل فى أشياء هى فوق القدرة البشرية، بالرغم من ذلك فإن الإنسان رغم عجزه يحاول أن يخترق هذه الحجب بطريق الجهل، وليس العقل، ومن هنا فإننا لا نجد أى مدرسة فلسفية حاولت أن تخترق الحجب إلى ما وراء المادة، أو إلى العالم غير المادى قد وصلت إلى نفس النتائج التى وصلت إليها مدرسة أخرى، بل إن كل مدرسة تصل إلى نتيجة قد تكون مخالفة، أو مناقضة للمدرسة الأخرى، ولم تصل مدرسة من هذه المدارس إلى نتيجة تقبلها كل العقول.

ومن هنا، فإن الرسالات السماوية قد حملت إلينا فوق الإثبات لوجود الله الأدلة على عدم وجود أى شريك لله ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذا الكون، فهى أوجدت الدليل على وحدانية الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه لا إله غيره، وأن الله أحد، ليس له شريك، وذلك حتى لا يدخل إلى العقل البشرى أن هناك وجودا لأكثر من قوة كبرى خلقت هذا العالم وأوجدته، وأوجدت كل شئ فيه، وأعطت العلم للإنسان ليسود فى الأرض، ومن هنا فهى نفت أن يكون هناك إله للسموات، وإله للأرض، وإله للريح، وإله للنجوم، إلى آخر ما كان يتصوره العقل البشرى فى القرون الماضية، وما زال بعض الناس يتصورونه حتى الآن، بل إنها قالت إنه رغم أن القوة فى العالم مختلفة، أو موزعة، فهناك الشمس مثلا بقدراتها على الإنارة، وعلى الدفء، وعلى إنماء الزرع، وعلى إحراق من يقترب منها، كل هذه القدرات

التى هى موجودة فى الشمس، بحيث إذا اختفت إلى الأبد أصبحت الحياة مستحيلة، وهناك قدرات أيضا فى الريح والعواصف، تدمر، ثم هى تنقل السحاب من مكان إلى آخر، وتبقى الحياة على الأرض بما فيها من مواد لازمة لحياة الإنسان كالأكسجين مثلا، بحيث إذا اختفت الريح من الأرض، وانعدمت، أصبحت الحياة مستحيلة، وهناك مثلا الأمطار التى تعطى الأرض مصادر المياه، والله خلق من الماء كل شئ حى ، إذا توقفت الأمطار جفت الأنهار، وانعدمت الحياة على الأرض، وهناك الأرض نفسها التى يعيش فوقها الإنسان، إنها هى الأخرى قوة أو قدرة من قدرات الله ، إذا انفجرت هذه الأرض، وتحطمت، وتناثرت، فإن الحياة تصبح مستحيلة.

كل هذه القوى وغيرها هى قوى، أو قدرات تؤثر فى حياة الإنسان تأثيرا جذريا، بل إن اختفاءها عن الكون قد يجعل الحياة منعدمة، ولكن هذه القوى والقدرات، وغيرها، قدرة العلم، فى اختراع أسلحة مدمرة ـ مثلا ـ تستطيع أن تفتت الكون، أو تلوث الكون، فتفنى الحياة من على الأرض تماما، كل هذه القدرات أو القوى ليست فى ذاتها آلهة ، وليست هى التى تصنع أى شئ، بل هى مسخرة لخدمة الإنسان، والذى سخرها هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فالشمس ليس لها إرادة مثلا تستطيع أن تقول: اليوم سأشرق، وغدا لن أشرق، لن أرسل أشعتى إلى الأرض اليوم، بل سأحجبها عنها، وأرسلها غدا، الشمس لا تملك هذه القدرة، لماذا؟ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلقها وسخرها لهدف معين، ومن هنا فهى تقوم بوظيفتها فقط، ولا تملك ـ رغم أنها قوة قادرة هائلة ـ لاتملك هذه الشمس التحكم فى هذه القوة، بل هى مسخرة لأداء وظيفة معينة لن يعطيها الله العقل لتفكر وتختار، ولكن أعطاها الوظيفة والقوة والقدرة لتعمل لما خلقت من أجله.

وما يقال عن الشمس يقال عن الريح، وعن الأصنام، وعن كل القوى الموجودة فى العالم، فلا الريح تستطيع أن تترك الأرض مثلا وتذهب بعيدا، أو أن توقف حركتها، ولا الأرض تستطيع أن ترفض الدوران حول نفسها، ولا أى من هذه القوى التى سخرها الله للإنسان تملك لنفسها أن تخرج عن الوظيفة التى سخرها الله من أجلها.

بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سخر ما فى السموات والأرض للإنسان، فنجد مثلا حصانا قويا جامحا، يستطيع بقوته أن يقتل عدة أشخاص، يستطيع أن يفتك بهم، ومع ذلك نجد طفلا صغيرا لم يبلغ العاشرة من عمره يمتطى هذا الحصان، ويقوده إلى حيث يريد، والحصان يمضى به، ويطيعه، فيطلب منه أن يرقد بإشارة معينة فيرقد، ويطلب منه أن يتوقف فيتوقف، ويقوده إلى حيث يريد، وأنت تقول إن هذا الطفل فارس ماهر، هذه وجهة نظر العلم الأرضى، ولكن الحقيقة التى يجب أن نتذكرها أن الله هو الذى سخر هذا الفرس بكل قدراته العضلية التى تستطيع أن تمزق هذا الطفل إربا، سخره لخدمة الإنسان، وخدمة هذا الطفل، ولو أن هذا الحصان غير مسخر، وله فكر، ويستطيع أن يتصرف، لما استطاع طفل أو رجل مهما كانت قوته أن يمتطيه، وأن يجعله يفعل كما يريد.

هذه حقيقة كونية، صحيح أن لركوب الحصان مثلا أو الجمل أو أى حيوان آخر طرقا معينة، يجب أن يتعلمها الإنسان، فتلك سنة الحياة، ولكن كل هذه القوى مسخرة أولا للإنسان، ولو لم تكن مسخرة له، لما استطاع أن يقترب منها، رغم كل علوم الأرض، وما تستطيع أن تهبه.

وما يقال عن الحصان يقال عن الإبل، والبقر.

إذن كل القوى فى هذا الكون سخرها الله لخدمة الإنسان، وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنا فى رسالاته أنا الله، أقول لكم إننى خلقت فى هذا الكون قوى خارقة أكبر منكم وأقوى وأشد، لا تستطيعون السيطرة عليها، ولا إخضاعها بعلمكم لتكون فى خدمتكم.

فأنتم لا تستطيعون أن توقفوا حركة الشمس، أو حركة الأرض، أو حركة الريح، وأنتم لا تستطيعون أن تسيطروا على غيركم من مخلوقاتى، ولكنى سخرت هذا كله لكم، وجعلته فى خدمتكم ليصنع لكم الحياة على الأرض، بإذنى وبأمرى، وجعلت هذه الأشياء مسخرة ليس لها عقول تفكر بها، لأقول لكم إننى أنا الله خالق كل شئ، وهذا هو خلقى أمامكم، كل هذه القوى تخضع لى أنا، وأنا جعلتها فى خدمتكم، جعلتها مسخرة لكم.

هذا ما قدمه الله فى كتابه ليتدبر فيه الإنسان فى وجود الله، ومع ذلك فإن الإنسان يترك هذا الكتاب، ويذهب إلى مالا يعرفه،ويحاول أن يتفلسف بعقله، ويخلق من خياله أشياء عن الكون، وكأنما لا يكفيه ما أعطاه الله له مما يستطيع أن يعمل فيه العقل البشرى سنوات وسنوات طويلة.

ومن هنا فإن دخول العقل البشرى فى منطقة لا يعلم عنها شيئا، وتركه ما أعطاه الله له مما يدخل فى قدراته، تبدأ المدارس الفلسفية المختلفة كلها تبحث عن الله، بعيدا عن الله.

□□□

الأسماء والمعانى

إذا قلت كلمة بلا معنى فإن العقل لا يفهمها، فالإنسان لا يستطيع أن يعقل إلا ما يعرفه، فإذا قلت كلمة «الله» وجدتها فى كل لغة من لغات العالم، ووجدت معناها واحدا فى العقول، إنه القوة القاهرة التى خلقت كل شئ، ولكننا لم نر الله ومع ذلك فإن العقل يعرفه.

كل ما فى الكون مسخر للإنسان، هذه هى الحقيقة التى أعلنها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كتابه العزيز، وهذه هى الحقيقة التى نجدها فى الكون، فهناك أشياء كثيرة أكبر من قدرة الإنسان ومن قوته ملايين المرات.

وتستطيع أن تدمره تدميرا، ومع ذلك فهى مسخرة لخدمته، فالشمس والأرض، والرياح، والمطر، والحيوانات، والأنعام وكل ما فى الأرض. هو ليعطى الإنسان الحياة عليها، وييسرها له، ولكن أحدا من هؤلاء جميعا لا يملك الإرادة ليقول إننى لن أخدم الإنسان اليوم، أو إننى سأعصى أمر الله بأن أكون مسخرا لخدمة الإنسان، فلا الشمس مثلا تملك الإرادة لأن تقول إننى لن أشرق هذا الصباح، أو إننى لن أرسل أشعتى للأرض اليوم، ولا المطر يملك أن يقول إنه لن ينزل ليسقى الناس الماء، ولا الهواء يملك أن يقرر أن يبتعد عن الأرض ويحرمها من الأكسجين اللازم للحياة، ولا الأرض نفسها تستطيع أن تتوقف عن الدوران، أو تلقى بمن عليها، ولا الفرس أو الجاموس، أو الجمل على قدر قوتها تملك عصيان الخضوع لطفل صغير ضعيف يستطيع أن يقودها إلى أى مكان يريده، تلك القيادة والسيطرة من الطفل على هذه الحيوانات القوية لا تأتى بأنه أخضعها بقوته هو، ذلك أن قوته عاجزة أمامها تماما، ولاوجه للمقارنة، ولكن الخضوع هنا يأتى بإرادة الله الذى سخر هذه الأشياء للإنسان فى الأرض.

والإنسان قد عبد قوى كثيرة فى العالم، على أساس أن هذه القوى آلهة، وبعض الناس عبدوا الشمس، وبعض الناس عبدوا النار، وبعض الناس عبدوا

الأصنام والأحجار، إلى غير ذلك، وقد جاء القرآن ليؤكد أن الله أحد، لا شريك له، وأنه ليس هناك إله فى السماء وإله فى الأرض، وإله للريح، وإله للنجوم؛ لأن كل هذه الأشياء مسخرة للإنسان، ولخدمة الإنسان، ومن هنا فإنه إذا كانت هذه الأشياء لا تملك الإرادة لنفسها فإنها بالتالى لا تملك السيادة على غيرها، ومن هنا فإنها خاضعة لقوة كبرى، هى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنها كلها آيات من آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ تدل على وجوده، وعلى عظمته، وقدرته، وقوته.

بل إن الذين يكفرون بالله، وينكرون وجوده، هم فى الحقيقة يثبتون أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ موجود، ذلك أن قولهم بأن الطبيعة هى منشأ الأشياء، ومحاولاتهم إنكار وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ تعنى أنهم يحاولون إنكار شئ موجود، إذ أن الشئ غير الموجود لا يحتاج إلى أى جدل، أو إنكار، ولا يكون موضع سؤال، فكيف يطرح على العقل إنكار شئ غير موجود، مادام هذا الوجود أصلا غير حقيقى، إن الجدل يحدث عادة حول شئ موجود، فهذا يؤكده، وذاك ينكره، ومن هنا بعض الجدل، والجدل الذى يثيره الكافرون حول هذا الموضوع أساسه شعورهم بالفطرة بأن الله موجود، ثم محاولتهم إنكار ذلك باستخدام الهوى والأغراض الشخصية؛ لأنهم يريدون أن يخضعوا شريعة الله لأهوائهم، فمثلا الجدل الذى يثار حول: هل الأرض كروية، أو الأرض مسطحة، أساسه أننا نرى أمامنا الأرض مسطحة، ثم يأتى العلماء بعد ذلك ليقولوا إن الأرض كروية، وينفى بعض الناس هذه الحقيقة، إذن فالجدل هنا نتج عن أن الشئ نفسه موجود وأن هناك حقيقة تعرفها أذهاننا، فالأرض موجودة، وعيوننا تراها مسطحة، ولكن لو لم تكن الأرض موجودة أصلا لما نشأ الجدل أبدا عن : هل الأرض كروية أم مسطحة، أى أن الأصل فى إنكار الشئ هو وجوده أولا، فوجود الأرض ذاتها، ثم وجودها أمامنا منبسطة، بدأ معه إنكار كروية الأرض، وكانت نقطة البداية، فلو أن امرأة مثلا ليس لها أطفال، لا تجد إنسانا يقول لك إن هذه المرأة عندها أطفال، وآخر يقول لك لا، ويثور جدل حول هذا الموضوع، ذلك أن أحدا لا يدخل فى جدل عن شئ غير موجود، ولكن هب أن هذه المرأة لها طفل، وتخفيه عن عيون

الناس، بعض الناس رأوه، وبعض الناس لم يروه، هنا يبدأ الجدل: هذا يؤكد، وهذا ينفى.

إذن الأصل فى حدوث جدل حول شئ هو وجوده أولا، والأصل فى محاولة الكافرين إنكار الألوهية، وإنكار وجود الله هو إحساس بأن الله موجود، وأن هذه حقيقة واقعية، وهم يحاولون نفيها؛ لأنها لا تصادف أهواءهم، والعجيب أنهم فى محاولتهم لهذا النفى أو الإنكار لا ينتبهون إلى أشياء تكذبهم، فمثلا اسم الله تجده فى كل لغة من لغات العالم، بل إن الاسم: اسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى جميع اللغات له معنى واحد، وهو الله خالق هذا الكون، وخالق الإنسان، وخالق كل شئ، فمن الذى أوجد هذا المعنى الموحد لهذه الكلمة فى كل الدنيا، وبجميع اللغات التى ينطق بها أى بشر؟ وكيف يمكن أن يحدث ذلك وهناك من ينكرون وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ كيف يمكن لقوة كبرى لها اسم فى كل لغة ينطق بها أى لسان، وهذا الاسم فى معناه، وفى قدراته موحد فى جميع أنحاء العالم، ومع ذلك فهناك من ينكر الوجود أصلا، ويجادل فى ذلك، ومن الذى وضع الاسم على كل لسان بهذه الصورة ؟ ومن الذى وضع معناه فى كل العقول التى تنطق به؟.

وإذا دققنا فى علم اللغة وصلتها بالإنسان، فإن أهم ما يدرس الآن بالنسبة لاستخدام اللغة، هو اتصال الكلمات بالعقل، وهذا الاتصال هو الذى يعطى التأثير الفكرى للكلمة فى ذهن الإنسان، أى أن المعنى يكون موجودا أصلا فى الذهن، وتأتى الكلمة لتبرز صورة هذا المعنى إلى العقل، فإذا قلنا (منزل) مثلا، فإن له معنى معينا فى عقولنا، هو مكان يقيم فيه الناس، مكون من عدة حجرات، إلى آخر ذلك، ومن هنا فإنه إذا ذكرت الكلمة قفز المعنى الموجود أصلا فى العقل، لتكون مقبولة، أما إذا قلت كلمة بلا معنى لم يلحظها العقل، ولم يعرف وجودها جيدا، كأن تأتى لرجل عاش فى أرض سهلة لم ير جبلا فى حياته، ثم تقول له كلمة (جبل)، إنه لا يستطيع أن يتصور ما معنى جبل، ولا يفهم شيئا، ذلك أنه لم يعقل هذا الشئ الذى يتحدث عنه أو تقوله له، ومن هنا فهو لا يفهمه، ولا يعرفه؛ لأنه لم يدخل إلى عقله أولا، ولكنك إذا قلت كلمة (الله)، فإن العقول كلها تفهمها

على أنها تلك القوة القادرة ، القاهرة، التى خلقت الدنيا كلها، ولكننا لم نر الله. فكيف نفهم هذه الكلمة؟ لو أن الله غير موجود فينا بالفطرة، وغير موجود فى عقولنا ونفوسنا لما فهمناها أبدا، ولما أخذت هذا المعنى العالمى الذى ينسجم مع النفس البشرية، إن يقيننا بوجود الله هو الذى يجعلنا نفهم هذه الكلمة، ووجود الله فينا بالفطرة هو الذى يجعلها تدخل إلى عقولنا؛ لأن أى كلمة لا يمكن أن تكون مفهومة إلا إذا كان معناها ومدلولها موجودين فى العقل البشرى أولا، بل إن وجود هذا المعنى يجب أن يسبق الكلمة نفسها، فأنت لا تستطيع أن تحدث أحدا بكلمة جبل، ويفهم ما تقول، أو بكلمة «قوى» ويفهم ما تقول، إلا إذا كان المعنى موجودا أولا فى عقله، قبل أن تنطق بالكلمة، فالمعنى يوجد أولا، فى عقله، قبل أن تنطق بالكلمة، فالمعنى يوجد أولا، ثم بعد ذلك توجد الكلمات الدالة عليه. وإذا راجعنا قواميس اللغة فى جميع أنحاء العالم نجد أن الكلمات الموجودة فيها هى لأشياء موجودة أصلا، وإن هذه القواميس تراجع كل عام لإضافة أسماء لأشياء وجدت، ولم تكن موجودة فى العام الذى قبله، وذلك يعنى أن الشئ يوجد أولا ثم بعد ذلك يعطى تسمية، بل إن هذا فى حياتنا اليومية ملحوظ فى كل شئ، فهناك أسماء كثيرة فى اللغة، تضاف إلى القواميس كل عام، وهناك علماء متخصصون يجتمعون فى مجمع اللغة ليضعوا الأسماء لمعان أو لأشياء وجدت، ولم تكن موجودة، إذن فالأصل أن يوجد الشئ أولا، ثم يضّع الإنسان له الاسم، ووجود اسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى جميع لغات الأرض، وبمعنى موحد فى جميع أذهان البشر، دليل على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ موجود قبل أن توجد البشرية نفسها، وقبل أن ينطق لسان بأى لغة.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى حقيقتين هامتين، الحقيقة الأولى: أن نفى الشئ لايمكن أن يكون مطروحا إلا إذا كان الشئ نفسه موجودا، والثانى: أن معنى أى شئ يجب أن يكون سابقا لاسمه.

الحقيقة الثالثة التى وصلنا إليها: أننا إذا أردنا أن نعرف شيئا عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإننا يجب أن نصل إلى العلم الصحيح عن طريق ما أعطاه الله لنا، مما

يريدنا أن نعرفه عنه، وألا نترك ذلك وندخل فى متاهات الفلسفة التى تحاول استخدام العقل فيما هو فوق قدرة العقل، وبذلك تضل ولا تصل إلى حقيقة.

فإذا أردنا أن نزداد قربا من الله، ومعرفة به، فيجب أن نتجه إلى رسالات السماء التى أرسلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للبشر؛ ليخبرهم بها عما يريد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعرفوه عنه، وعن هذا الكون ، وعن الخلق والكون، والحياة والبعث، ذلك أن هذه الرسالات هى الطريق الوحيد لهذا العلم.

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى قرآنه إنه خلق آدم، خلق الإنسان، وآدم هذا من خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخلقه طفلا له أب وأم، وينمو، كما هو الحال فى المخلوقات البشرية التى نمت من سلالة آدم، ولكنه خلقه رجلا كامل الرجولة، رجلا لم يكن طفلا فى حياته فى يوم من الأيام، ووجد آدم نفسه مخلوقا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ رجلا كامل النمو، تسجد له الملائكة .

وقال لنا القرآن إن آدم خلق من تراب، ومن هنا فإن آدم فى خلقه هذا لم يكن رجلا له ماض معروف، بل لم يكن رجلا بلا ماض، دخل إلى الوجود بقدرة الله.

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾(١) هنا قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو منشأ العلم البشرى، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الآية أخبرنا أن العلم البشرى، أو العلم الذى أعطيته لكم أيها البشر، يجب أن يبدأ بالطريقة التى وضعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهى تعليم الأسماء، وإننى لكى يبدأ العقل البشرى الذى وضعته فى آدم الحصول على المعرفة، يجب أن يتعلم أولا الأسماء.

نأخذ نحن هذه القصة، ثم نسأل أنفسنا: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: إن منشأ العلم الأسماء. أى أن أى إنسان لا يستطيع أن يبدأ التعلم إلا إذا عرف معانى الأسماء تماما كما علم الله آدم مبتدئا بالأسماء، نجد أننا ـ بعد مرور أربعة عشر قرنا، ورغم تطور كل وسائل الدنيا ـ عاجزون عن أن نغير هذه الحقيقة التى أعلنها الله فى القرآن، فنحن حين يبدأ العقل البشرى خطواته الأولى فى طريق العلم،

---

(١) سورة البقرة ،من الآية : ٣١.

يجب أن يبدأها بتعلم الأسماء مهما اختلفت طرق التعليم وفلسفاته في العالم أجمع، فنحن نأتى إلى الطفل الصغير ونقول له: هذا كوب، وهذا سلم، وهذا طبق وهذه سيارة، وهذا أسد ، وهذا فيل، وهذه سماء، وهذه أرض، ثم بعد أن نعلمه الأسماء يستطيع هو أن ينطلق فى العلم كما يشاء، ولكننا لانستطيع ـ ولن نستطيع ـ أن نعلم الطفل شيئا قبل أن نعلمه الأسماء، لا نستطيع أن نبدأ بتعليمه أية معلومات لا تدخل إلى عقله إلا إذا تعلم معانى الأسماء، بل إن الطفل يظل لفترة طويلة فى حياته بالفطرة يتعلم الأسماء، فإذا خرج طفل مع أمه فى نزهة فإنه يسألها عن اسم هذا، واسم هذا، واسم هذا، وإذا جلس فى البيت فإنه يحاول أن يسأل عن أسماء أى شئ غريب يقع عليه نظره، وكلمة (ما هذا) التى يقولها الطفل لأبيه وأمه هى أكثر الكلمات ترددا فى سنى حياته الأولى بالفطرة، لماذا؟ لأن هذا هو منشأ العلم، مدخل العلم الذى وضعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ للعقل البشرى، فإذا كنا بعد أربعة عشر قرنا، لم نستطع أن نجعل الإنسان يتعلم شيئا إلا إذا علمناه الأسماء أولا، والأسماء هذه هى ما علمها الله لآدم، انطلاقا للعقل البشرى، ليدخل إلى العلم والمعرفة، فإذا كان المدخل من الله، فهل يكون العلم البشرى من غير الله؟.

□□□

معنى الوجود

وحينما ندخل المسجد نجد عباد الله جالسين معا، عقول كلها مختلفة فى السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعى والطباع والعادات وكل شئ، ولكنها كلها منسجمة فى عبادة الله: تركع معا، وتسجد معا، وتسبح معا.

لقد أجهد الفلاسفة أنفسهم على مر سنوات طويلة فى محاولة الوصول إلى وجود الله باستخدام العقل بدلا من الرسالات السماوية، ومن هنا فإنهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يخلق له، ذلك أن العقل له وظائف ليس من بينها أن يصل إلى وجود الله بعيدا، أو غير مستخدم الرسالات التى أنزلها الله لعباده، تلك الرسالات التى وضع فيها الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأدلة، ووضع فيها ما هو فى قدرة العقل البشرى منذ يوم خلقه، إلى يوم القيامة، ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا، ويقدموا للعقل البشرى ما هو فوق طاقته، فيخرجون بذلك من نقطة العقل إلى الخيال والتخيل.

والرسالات السماوية قد حملت إلينا أن الله واحد أحد لا شريك له، ولا إله غيره. ومن هنا فهى نفت أن هناك إلها للسموات، وإلها للأرض، وإلها للريح وإلها للنجوم، إلى آخر ما يمكن أن يتصوره العقل البشرى وما تصوره فعلا خلال القرون الماضية، بل إن هذه الرسالات قد أخبرتنا عن كل شئ فى هذا الكون يدخل أو سيدخل فى مقدرة العقل البشرى.

فالشمس ـ مثلا ـ لازمة للحياة، وإذا اختفت أصبحت الحياة مستحيلة، فلا الزرع سينمو، ولا النهار يكون مضيئا. ولا الأرض ستمضى فى نظامها الحالى، والهواء مثلا إذا اختفى من الأرض، انعدم الأوكسجين اللازم للحياة وأصبحت الحياة بالنسبة للإنسان والحيوان ـ بتكوينه الحالى ـ مستحيلة، وكذلك الماء والأمطار، هى التى تعطى الحياة كلها للأرض، بل إن الأرض نفسها التى عليها الحياة إذا تفتتت أو انفجرت فإن الحياة تنتهى.

ومع أن هذه القوى كلها ضخمة هائلة، تعطى الحياة للإنسان على الأرض، إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أخبرنا أن كل هذه القوة مسخرة لخدمة الإنسان رغم أنها أقوى منه ملايين المرات، ورغم أنه لا يستطيع أن يصنعها أو يخلقها، فلا الشمس تستطيع أن تقول إننى سأشرق اليوم ولن أشرق غدا، أو إننى سأبتعد عن الأرض وأغير نظام الكون، ولا الرياح تستطيع أن تترك الأرض إلى مكان آخر، ولا الأمطار تستطيع أن تتوقف، ولا الأرض نفسها لها أى اختيار فيما تحمل أو فيما يحدث فوقها، لماذا؟ لأن الله هو الذى خلق كل هذه القوى، وهو الذى سخرها لخدمة الإنسان، ونحن حين نتدبر فى خلق هذا الكون وقدرة الله نقف أمام هذه القوى الكبرى الهائلة التى هى ـ بلا شك ـ خارجة عن إرادة الإنسان، بل وأقوى منه بلايين المرات، ثم نتدبر، هذه القوى الهائلة مسخرة لخدمة الإنسان، لا تستطيع أن تعصى يوما واحدا، ثم نجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أخبرنا فى كتابه العزيز أن كل هذه القوى مسخرة لكم، وهنا نقطة يقف فيها العقل مع الحقيقة، والحقيقة جاءت من الله، والوقوف هنا والتأمل أصبح فى قدرة العقل بما أتاحه الله لهذا العقل من قدرة، فإذا بحثنا عن اسم الله وجدناه فى كل لغة من لغات الأرض، ووجدنا أن معناه واحد فى العالم كله رغم اختلاف معانى الألفاظ فى اللغات، ولكن اسم الله فى كل لغة وكل لهجة موجود ، ومعناه تلك القوة القادرة القاهرة التى خلقت كل شئ..

إذن لفظ (الله) معناه واحد فى كل العقول، وفى كل اللغات، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه بالنسبة للبشر فإن المعنى يوجد أولا، ثم اللفظ، ذلك أننى لا أستطيع أن أضع اسما لما هو غير موجود، بل إن الوجود يتم أولا، ثم يطلق الاسم، وذلك لنعلم أن اسم الله الذى وجد مع النفس البشرية، كان موجودا قبل أن توجد هذه النفس البشرية، وهو الذى خلقها وأوجدها، بل إن تقبل العقل البشرى لاسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ معناه أن هذا العقل يعرف الله بالفطرة، وإن كان الله فوق قدرة العقول، ومن هنا نعود مرة أخرى إلى الرسالات السماوية، إلى الآية الكريمة ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ**

﴿شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾(١) هذه الآية الكريمة وهى التى أخبرنا بها الله، تدلنا كيف أن (الله) يوجد فينا بالفطرة رغم أنه فوق قدرة العقل، فقد عرفنا وجود الله يقينا، وهذه المعرفة موجودة فى داخلنا حتى وإن لم يدلنا أحد عليها، ومن هنا فإذا ذكر اسم الله فإننا لا نحس أن إنسانا ينطق لفظا غريبا لا معنى له، ولكننا نحس أنه ينطق لفظا نعرفه جيدا، ونحس به فى داخلنا ، ونحس بقدرته وقوته، وبأن الحياة لا يمكن أن تنسجم إلا بوجوده، وهناك أميون لا يقرأون ولا يكتبون، وربما لم يقرأوا كلمة واحدة فى حياتهم، فإذا أخبرتهم عن أى شئ فى هذه الدنيا سألوك: ما معنى هذا الذى تتكلم عنه؟ نحن لانفهمك، إلا كلمة (الله) سبحانه وتعالى فإنك إذا قرأتها عرفها الجاهل والمتعلم، والصبى والرجل، والكهل، وكل إنسان يجلس أمامك، ولن تجد أحدا يقف ليسألك: ماذا تعنى بكلمة (الله)؟ إننا لا نفهم هذه الكلمة، لماذا؟ لأن (الله) يوجد فينا بالفطرة، ومن هنا فإن الطفل يعبده، والإنسان البسيط الذى لم يقرأ كلمة فى حياته يعبده، والإنسان المتعلم يعبده، والإنسان الذى تبحر فى العلم ووصل إلى أعلى مراتبه يعبده، وكل هذه العقول على اختلاف مستوياتها قد تعجز عن فهم مشترك لقضية من القضايا، ولكنهم جميعا لا يوجد بينهم تصادم فى عبادة الله.

وأنت تدخل إلى المسجد تجد عباد الله جالسين معا، عقول كلها مختلفة، فى السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعى والطباع والعادات وكل شئ، ولكنها كلها منسجمة فى عبادة الله، تركع له معا، وتسجد له معا، وتقرأ له القرآن معا، وتسبح له معا، كل هذه العقول لا يمكن أن تجتمع وتنسجم هكذا إلا إذا كان (الله) موجودا فينا بالفطرة، وإلا مصداقا للآية الكريمة ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾(١).

على أن بعض الناس يحاول أن ينكر وجود الله، ومحاولة هذا الإنكار فى

(١) سورة الأعراف : الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣.

(٢) سورة الأعراف : من الآية ١٧٢.

حدها إثبات. ذلك أنك لا تنكر إلا ما له وجود، فما هو غير موجود أصلا لا تجد أنك محتاج إلى إنكاره، فالأرض مثلا بعض الناس يقول إنها مبسوطة، وبعض الناس يقول إنها كروية، ويحدث جدل، أو حدث جدل فى الماضى حول ذلك، ولو أن الناس لم يروا الأرض أمامهم مبسوطة، ولو أن العلم لم يثبت للناس الأرض كروية لما حدث هذا الجدل، فالجدل هناحدث لأن هناك واقعا علميا يخالف واقعا تراه العين، إذن فقبل النفى أو الجدل، هناك وجود، ومثل ذلك فى كل شئ فى الدنيا، فإذا أردنا أن ننفى أو ننكر نظرية علمية فيجب أولا أن تكون هذه النظرية موجودة لننفيها أو نحاول إنكارها، وإذا لم تكن النظرية موجودة أصلا فكيف ننفيها أو ننكرها؟

إذن محاولة إنكار وجود الله قد سبقتها الحقيقة، وأن الله موجود فعلا، وكل من يحاول الإنكار إنما يحاول أن ينكر شيئا موجودا أصلا ووجوده ثابت، وإلا فما الذى يحاول أى كافر أن ينكره.

محاولة النفى والجدل لا يمكن أن تتم إلا بالنسبة لشئ موجود فعلا، فإذا كان هناك إنسان لم يرزق فى حياته بأطفال، هل يثور جدل حول وجود أطفال له؟ الجدل يثور إذا كان لهذا الإنسان طفل يخفيه، بعض الناس رأوه، وبعض الناس لم يروه، وهنا يبدأ الجدل، ولكن إذا لم يكن هناك شئ أصلا، ففيم سأجادل، الجدل هنا ومحاولة إنكار وجود الله هى إثبات بأن الله موجود، وأن هناك من يحاولون لهوى فى نفوسهم أن يجادلوا فى هذا الوجود، أو ينكروه.

ويمضى فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى حديثه فيقول: لقد عبد الإنسان قوى كثيرة على أنها آلهة، عبدوا الشمس وعبدوا النار، وعبدوا الأصنام والحجارة، وعبدوا الإنسان كآل فرعون، كل هذه الأشياء عبدوها وأطلقوا عليها أسماء مختلفة، ولكن هل إذا قلت أى اسم من هذه الأسماء يقفز إلى النفس البشرية معناه؟ أبدا، فأنت إذا قلت ـ مثلا ـ عن إله الشمس، لم يفهم أحد شيئا، وإذا ذكرت اسم اللات أو العزى فإن العقول لاتفهمها، وإذا قلت فرعون تجد كثيرا من الناس لا يدركون شيئا، إذن فكل هذه الآلهة زيف وإفك، ولا يوجد إلا إله

واحد هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ الله الأحـد، الذى إذا ذكر اسمه وجدت كل عقل يفهمه، وكل نفس تحـسه، وكل ما يشرك به من دون الله هو إفك وزيف، بلا أصل ولا حقيقة إلا هوى النفس البشرية.

ثم نأتى بعد ذلك إلى نقطة هامـة جدا، لقد خلق الله آدم، خلقـه وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس.

عندمـا خلق الله آدم لم يكـن لآدم ماض، لم يكـن له أب يعلمـه، أو أم تلقنه، فمن الذى علمه؟ الله، وماذا علمه؟ كما يقول القرآن ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾[1].

ما معنى ذلك؟ معناه أن منطلق العلم الذى أتاحه الله للعقل البشرى يجب أن يبدأ بالأسماء، ثم بعد ذلك ينطـلق إلى علوم الدنيا، إذن الله حدد لنا منطلق علمه الذى أعطاه للبشر، قال يبدأ علمى لكم بالأسماء.

تعالوا لنرى اليـوم ـ بعد كل هذا التـقدم ـ هل خرج الإنسـان عن الدخول إلى نقطة العلم من المدخل الذى حدده الله؟ أبدا.

إذا أردت أن تعلم الإنسـان بكل صنوفـه وأجناسه فـيجب أن تبـدأ بالأسمـاء أولا، تقـول للطفل: هذه شـمس، وهذا نور، وهذا ظلام، وهذا فـيل، وهذا أسـد، وهذا كوب، وهذه سبورة ، أى أنك تعلم الطفل الأسماء أولا، ثم تتركه بعد ذلك، فيستطيع أن يسـتوعب علوم الأرض كلها، ولكن يجب أن يدخل من نفس المدخل الذى حدده الله للعلم البـشرى، عندما علم آدم أول البشر علمـه الأسماء أولا، بل إن أحدث طرق التعليم فى العـالم تقوم الآن بتعليم الطفل الأسمـاء والصور حتى يسـتطيع أن يستـوعب العلم بسرعـة، ويتقـدم إلى العلوم الأخرى. إذن لم يـخرج الإنسـان فى دخـوله إلى العلم عن نفس الطريقـة التى حـددها الله، ولن يسـتطيع الخروج عليها.

وبذلك نكون قد وصلنا إلى أربع حقائق هامة:

الحقيقة الأولى: أن (الله) موجود فينا بالفطرة، نعرفه ونحس بوجوده جميعا.

---

(1) سورة البقرة : من الآية ٣١.

الحقيقة الثانية: أن الوجود يسبق الاسم دائما، وأن الوجود سابق لمحاولة النفى والإنكار.

ثالثا: أننا إذا أردنـا أن نعرف شيـئا عن الله ـ سبـحانه وتعالـى ـ فإننا يجب أن نصل إليه عن طريق العلم الصحـيح الذى أعطاه الله لنا فى رسالاته ولا ندخل فى متاهات الفلسفة.

رابعا: أن الله قد حدد لنا مدخل العلـم البشرى للإنسان عندما خلق آدم، وإذا أردنا أن نتعـلم فيجب أن ندخل نـحن جميـعا ـ مـؤمنين وغير مـؤمنين ـ يجب أن ندخل جميعا من الباب الذى حدده الله لنا وهو تعلم الأسماء.

□□□

الإنسان والأمانة

إن السموات والأرض والجبال رفضن أن يكون لهن اختيار فى أمورهن، وفضلن أن يكن مقهورات مسخرات لما يريده الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكن الإنسان حمل الأمانة وأخذ حرية الاختيار فى (افعل، ولا تفعل).

الله ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يخاطبنا فإنه يخاطب العقول جميعا ، ويجعل لكل منها قدرا من الفهم يحس به بقدرة الله وعظمته، وهذا من إعجاز القرآن الكريم ذلك أن القرآن يخاطب وجدان كل البشر، وأنت حين تخاطب الناس تجد أن معرفة الله ـ سبحانه وتعالى ـ موجودة فيهم بالفطرة، ومن هنا فإنه إذا ذكر اسم الله فإننا لانحس أن لفظا غريبا يقال لنا، ولكننا نحس يقينا أن هذه المعرفة موجودة فى داخلنا حتى وإن لم يدلنا أحد عليها، ونحس بقدرته وقوته، وبأن الحياة لا يمكن أن تنسجم إلا بوجوده.

وهناك أميون لايقرأون ولا يكتبون، وربما لم يقرأوا كلمة واحدة فى حياتهم، فإذا أخبرتهم عن أى شئ فى الدنيا قالوا: ما معنى هذا الذى تتكلم عنه؟ نحن لا نفهمك، إلا كلمة (الله) سبحانه وتعالى، وإنك إذا قلتها عرفها الجاهل والمتعلم والصبى، والرجل، والكهل، وكل إنسان يجلس أمامك.

وحينما ندخل المسجد نجد عباد الله جالسين معا، عقول كلها مختلفة فى السن والثقافة، والفكر، والمركز الاجتماعى ، والطباع، والعادات، وكل شئ، إذا حاولت أن تتحدث إليها عن أى موضوع فإنها لا يمكن أن تفهمه، ولا تنسجم معه، ولكننا نجدها كلها منسجمة فى عبادة الله: تركع معا، وتسجد معا، وتسبح معا.

وينتقل فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى بعد ذلك إلى خلق الإنسان، فيقول: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق آدم، وقال للملائكة: اسجدوا له، وآدم مخلوق بلا ماض، لم يعلمه أحد شيئا، ولم يرث حضارة ولا علما، ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ فالله قد أخبرنا فى كتابه العزيز أن

مدخل العلم إلى النفس البشرية هو الأسماء، وحتى هذه اللحظة، ورغم مرور هذه القرون الطويلة لا يزال مدخل العلم البشرى لإنسان هو الأسماء، فالطفل أول ما يتعلم، يتعلم أسماء الأشياء، ثم بعد ذلك يستطيع أن يستوعب من العلم ما يشاء ولكن مدخل العلم الذى أتاحه الله للبشر لا يتأتى إلا من المدخل الذى حدده الله، وهو تعليم الأسماء أولا، فالطفل فى أول سنى عمره يستوعب الأسماء، فأنت تقول له: هذا كوب، وهذا منزل، وهذا شارع، ثم بعد أن تعلمه الأسماء تتركه، فيستطيع عقله البشرى أن يحصل ما يتاح له من العلم معتمدا على نفسه.

ثم نأتى بعد ذلك إلى نقطة تالية، وهى أنه عندما خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ آدم حمله الأمانة، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كتابه العزيز: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾[1].

ما معنى الأمانة؟ معناها الشهادة بالحق طواعية فيما لك اختيار فيه، وبمحض إرادتك، فإذا أودع إنسان لديك مالا، وأخذ عليك ورقة تثبت أنه أودع هذا المال، فإن هذه ليست أمانة، لماذا؟ لأن هذه الورقة تثبت حقه، وبالتالى فإنك إذا أنكرت يستطيع أن يثبت كذبك.

هذه الورقة التى كتبتها أخرجتك من دائرة الاختيار، فلم تعد تستطيع أن تقول (نعم، أو لا) بمحض اختيارك؛ لأن هذه الورقة سلبت منك حق الاختيار فى الإنكار، وأثبتت لصاحب الحق حقه، ومن هنا فإن هذه ليست أمانة، لأن جانب الاختيار فيها غير متوافر، أو غير متاح، ولكن إذا أعطاك أى إنسان مبلغا من المال بينك وبينه ودون شهود، ودون ورقة مكتوبة، فإنه يكون قد أعطاك هذا المال كأمانة، لماذا؟ لأنه بينك وبينه معتمد على تمسكك بالحق، ومن هنا فإنك تستطيع أن تقول نعم، أخذت منه هذا المال، وتستطيع أن تقول لا، لم آخذ منه هذا المال وتنكر ما حدث.

إذن ما دام الاختيار موجودا فى أنك تستطيع أن تفعل هذا أو لا تفعله، أى

(١) سورة الأحزاب : من الآية ٧٢.

تستطيع أن تقول إننى أخذت المال أو لم آخذه، فهنا تكون الأمانة، الاختيار موجود، وأنت وأمانتك، تستطيع أن تقول الحق، أو تنكره.

فإذا قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا** ﴾[1] فمعنى ذلك أن هذه الأشياء كلها قد رفضت أن يكون لها اختيار فى أمورها، وفضلت أن تكون مقهورة مسخرة لما يريده لها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لماذا؟ لأنها جميعا خافت من عواقب هذا الاختيار، وما يمكن أن يؤدى بها إلى معصية، أو إلى مخالفة لأمر الله، ولكن الإنسان بعقله قبل الأمانة، أى قبل أن يكون له اختيار.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى: ولنبسط المسألة قليلا، هب أن إنسانا جاءك، ومعه مبلغ كبير من المال، وقال: أنا أريد أن أضع هذا المبلغ عندك أمانة، أحد أمرين: إما أن يكون تصرفك كتلك المخلوقات التى رفضت أن تحمل الأمانة بأن تقول لنفسك: إن هذا اختيار صعب، هذا الرجل سيترك لى ماله، وقد تمتد يدى إليه، وقد أنفقه فيما تغرينى الحياة، ثم بعد ذلك يأتى وقت السداد فلا أجد المال، فحتى لا أقع فى أى إغراء، وأقطع الشك باليقين فإننى أرفض هذه الأمانة لأنها تعرضنى إلى مالا أستطيع أن أحتمله، وإلى إغراء الشيطان، ومن هنا فأنا لا أريد أى اختيار لنفسى، ولن آخذ هذا المال كأمانة.

ولكن قد توسوس النفس والعقل بأنك تستطيع أن تأخذ هذا المال وأنك قادر على أن تودعه عندك، وربما قادر على أن تستخدمه فيما ينفعك، ولكنك قادر أيضا حسب ظنك وعلمك أن ترد هذا المبلغ لصاحبه عندما يأتى وقت الحساب، وتأخذ المال، وتنفقه، ثم يأتى وقت الحساب فلا تجد عندك منه شيئا.

إذن الأساس هنا هو الاختيار، والإنسان عندما حمل الأمانة معناها: أنه أخذ حرية الاختيار فى: افعل ولا تفعل، ومن هنا كانت الرسالات السماوية التى نزلت للإنسان، لأنه قبل حمل الأمانة، أى أخذ الاختيار فى يده ليفعل أو لا يفعل، أخذه وهو يحسب أنه قادر على أن يفعل ما يرضى الله، وأن يتجنب ما يغضبه، ولكن

---

(١) سورة الأحزاب : من الآية ٧٢.

إغراء الشيطان، وبريق الدنيا، وضعف النفس البشرية لم يكن فى حسابه، وبذلك كان ظلوما، أي: ظالما لنفسه، فى أنه اعتقد فيها أكثر من قدراتها، وهذا هو الغرور الذى إذا دخل النفس خرج منها الإيمان، الغرور الذى جعل قارون يقول: ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾[1] أى أن الإنسان يغتر بنفسه وعقله وقدراته ناسيا أن هذه القدرات هى من عند الله، وأنه هو الذى أعطاها له، ويستطيع أن يأخذها منه، جهول، أى أن الإنسان جاهل بالحقيقة التى حوله فى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو القادر، والقاهر، والمعطى، والمانع، والرافع، والخافض، والمعز، والمذل.

وهكذا حمل الإنسان الأمانة، ووضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمامه البدائل فى أن يفعل أولا يفعل، ومادام الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد قال للإنسان افعل كذا، فمعنى ذلك أنه فى مقدور هذا الإنسان ألا يفعل، وإلا لما قال له الله افعل، ومعنى قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان لا تفعل كذا، أن الإنسان قادر على أن يفعل، وإلا لما قال له الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا تفعل.

إذن أخذ الإنسان الاختيار فى افعل ولا تفعل، فماذا حدث؟ صور له جهله أشياء كثيرة، فخلق آلهة ليعبدها من صنع يديه، أى أنه عبد ما يستطيع أن يصنعه، ونسى أن الذى يصنعه إنسان لا يمكن أن يكون هو خالقه، أى خلق الله الإنسان، ثم عبد الإنسان نفسه، ثم حاول أن ينكر وجود الله، وانطلق مع هوى نفسه جاحدا نعمة الله، ترك الرسالات التى أنزلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ له ليبين له طريق الحق، وطريق الحياة الطيبة الآمنة، وأخذ يشرح لنفسه وحسب أهوائه، فأصابه الشقاء فى الدنيا، وحلت به الكوارث، وعاش عيشة ضنكا، ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك؟ !.

(١) سورة القصص : من الآية ٧٨.

الإنسان والاختيار

إذا أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتحدى البشر فإنه يتحداهم فى أمر اختيارى أى أن يستطيعوا القيام به بمحض اختيارهم وبكامل إرادتهم، ذلك أن التحدى فى أمر لا اختيار للإنسان فيه لا يكون تحديا، وفى القرآن تحديات كثيرة، فى أمور اختيارية، لم يستطع الإنسان أن يواجهها.

أخذ الإنسان حرية الاختيار فى (افعل ولا تفعل)، فماذا حدث؟ صور له جهله أشياء كثيرة، فعبد كل شئ فى الدنيا، لا ينفعه ولا يضره، عبد الأحجار والأصنام، وعبد النار والشمس، وعبد الحيوانات والأصنام، وعبد الحيوانات المفترسة، والحيوانات الأليفة، وانطلق فى جهل بعيدا عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ الخالق لكل هذا الكون، المدبر له، انطلق الإنسان جاحدا نعمة الله، ترك الرسالات التى أنزلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ له ليبين له طريق الحياة الطيبة الآمنة. وأخذ يشرع لنفسه حسب أهوائه، فأصابه الشقاء فى الدنيا، وحلت به الكوارث، ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك؟.

إذا أردنا أن نصل إلى ما تريده النفس البشرية فى هذه الدنيا فقد لخصه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى شيئين أساسيين، ووصف بهما وصفا بليغا مدخل الشيطان إلى النفس البشرية، وما يريده كل إنسان، ذلك أن الشيطان حين أراد أن يغرى آدم بمعصية الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال له: ﴿ **أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴾[1] وقال الشيطان لهما: ﴿ **مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾[2] .

إذن الإنسان يريد شيئين فى الدنيا: الخلود، والأموال التى لا تفنى، ولا تنتهى، إنه يريد أن يبقى فى الدنيا خالدا لا يموت، ويريد أن يكون له ملك يعيش فيه عيشة

(١) سورة طه : من الآية ١٢٠.

(٢) سورة الأعراف : من الآية ٢٠.

الترف التى يريدها دون أن تتأثر هذه الأموال بكل ما ينفقه، ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية، هذه الآلهة كلها التى اخترعها البشر هى إما جالبة للرزق، أو دافعة للضرر مبعدة للموت، وهى فى الحقيقة لا تفعل هذا ولا ذاك، ولكنه الخوف الذى يضعه الشيطان فى النفس غير المؤمنة هو الذى يجعلها تعتقد أن هناك شيئا فى يد أحد غيرالله ـ سبحانه وتعالى ـ وهنا نقف قليلا عند هذه النقطة، الله ـ سبحانه وتعالى ـ حين أخذ من آدم ذريته، وأشهدهم على أنفسهم، نجد فى النفس البشرية أثر هذا حتى الآن. فكل نفس بشرية تعرف الله بالفطرة، ولا تحتاج لأى شرح إذا ذكرت لها كلمة (الله) سبحانه وتعالى، ويكفى أن تذهب إلى الحج لترى اسم الله ينطق بجميع لغات الدنيا، بكل لغة من لغات العالم، والمعنى واحد، وهؤلاء الناس الذين جاءوا من كل بقاع الأرض قد لا يستطيعون التحدث معا، أو التفاهم معا، لأنهم لا يفهم بعضهم البعض، ولا يتكلمون لغة بعضهم البعض، ولكن إذا ذكر اسم الله أمامهم توحدت قلوبهم عند كلمة (الله)، وإذا أقيمت الصلاة توحدت وقفتهم جميعا بين يدى الله مع أنهم غرباء تماما، ولكنهم متعارفون فى الله، بغير المعرفة المألوفة بين البشر، وربما التقوا أياما فى الحج، ثم بعد ذلك لا يلتقون، ولكن رغم أنهم غرباء فى كل شئ تجمعهم كلمة (الله) سبحانه وتعالى، بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمعن فى التحدى، ويقول ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة مريم: ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾[1] أى أنه تحدى فى القرآن أنه هو خالق كل شئ، وهو (الله) لن تجد اسمه يطلق على أحد.

وهذه نقطة يجب أن نقف عندها، إن عادة الإنسان أن يطلق اسما على كل شئ، لا يوجد شئ فى الدنيا بغير اسم إلا إذا كان مجهولا للإنسان. فكل شئ يطلق عليه اسم، أنت لك اسم، وإذا جاءك ابن تطلق عليه اسما، والظواهر الطبيعية لها أسماء، وكل شئ فى الدنيا له اسم، والاختراعات الجديدة والاكتشافات الجديدة يضع الإنسان لها الأسماء، حتى يستطيع الإنسان أن يعرفها أو يعرِّفها، إذن

(١) سورة مريم : من الآية ٦٥.

فكل شئ فى هذه الدنيا له اسم يميزه عن غيره، ثم يأتى القرآن ويتحدى، ويقول إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن تجد له سميا، أى لن تجد إنسانا باسمه، والتحدى هنا لمن؟ التحدى فى القرآن، وفى الإيمان هو للمشركين والكفار، ذلك أن القرآن لا يتحدى المؤمن أبدا؛ لأن المؤمن قد آمن وأطاع، وهو ليس محتاجا للتحدى، ولكنه محتاج لما يزيده إيمانا وقربا لله ـ سبحانه وتعالى ـ أما المحتاج للتحدى فهو ذلك الذى يكفر. فيأتى الله ليقول له إن هناك تحديا: تحديا لك فى كذا وكذا، فهل تستطيع أن تفعله يا من تعبد نفسك؟ أو تعبد الإنسان، أوتعبد الحجر ، أو تعبد أى شئ آخر؟ إذا كنت تريد أن تثبت حقيقة أنك أنت وما تعبده، ومن يعضدونك ويشدون أزرك لهم قطرة من القوة، فإننى أتحداكم أن تفعلوا كذا وكذا، والتحدى دائما من الله ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان يكون فى أمر اختيارى . إذ أن التحدى لا يمكن أن يكون فى أمر إجبارى يجبر الإنسان عليه، بمعنى ـ مثلا ـ أننى لا أستطيع أن أقول لإنسان إننى أتحداك ـ مثلا ـ أن تطيل عمرك شهرا أو شهرين ، أو أتحداك ألا تصاب بمرض طوال حياتك، إلى آخر هذه الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها، هنا يكون التحدى بالغ الصعوبة، غير ميسر، وأحيانا مستحيلا، ولا يعتبر تحديا.

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يتحدى يأتى بأمر اختيارى يمكن لأى إنسان أن يصل إليه ويتحدى فيه، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ مثلا علم أزلا أن بعض الناس سيتخذون العلم الذى أتاحه الله لعقول البشر، وجعله فى طاقتها، سيأخذون هذا العلم ليعبدوه ويتخذوه إلها، ويقولون انتقلنا من عصر الدين إلى عصر العلم؛ ولذلك وضع الله فى القرآن ما يرد عليهم، قال لهم إن العلم الذى تعبدونه من دون الله قد يوصلكم إلى أشياء تدهش عقولكم، وتزعزع إيمانكم، ولكنى أقول لكم إن هذا العلم بهيلمانه عاجز عن أن يخلق ذبابة، هذا تحد رهيب للعلم الذى وصل إلى القمر، وهو فى طريقه إلى المريخ لن يستطيع أن يخلق ذبابة واحدة، ولو اجتمع لها علماء العالم كله، وفعلا كان هذا هو التحدى، والتحدى هنا يقول أنا سأعطيكم من علمى ما أريد، لتصلوا إلى القمر، وتطيروا فى الهواء، وتفعلوا ما يعتبره العقل البشرى أشبه بالمعجزات، ولكن اعلموا أن هذا بإذنى

وأمرى، فإننى سأمنع عنكم خلق أحقر شئ «الذبابة» ستصلون بعلمكم إلى ما أريد، ولكن لو اجتمع علماء العالم كلهم ليخلقوا ذبابة ما استطاعوا، ولن يستطيعوا أن يصلوا بعلمهم إلى ما لا أريد، رغم بساطته.

ويأتى العلم ليحقق للعالم أشياء كثيرة، حتى أن الإنسان أصبح يملك وسائل نسف الأرض، ووسائل إلكترونية حديثة تفوق فى خدماتها كل ما تصورته العقول، ونزل الإنسان فوق القمر، وهو فى طريقه إلى كوكب الزهرة، إلى غير ذلك، ولكن التحدى ظل قائما، ذلك أن الإنسان لا يستطيع مع كل ما أوتى من العلم أن يخلق ذبابة، أو حتى جناح ذبابة.

جاء التحدى فى أشياء أخرى كثيرة فى القرآن مثل المطر، وبالرغم من كل الاختراعات الحديثة فإن العلم عاجز عن أن ينشئ سحابة صناعية، ويجعلها تمطر حيث يريد، بل إن بعض بلاد الدنيا تعانى من كثرة الماء، وكثرة الأمطار، والبعض الآخر يعانى من القحط الشديد، والعلم لا حيلة له فى ذلك، مع أن الله كشف لنا الطريقة التى يتكون بها السحاب، ثم الطريقة التى ينزل بها المطر، وهنا إمعان فى التحدى، إذ أنه يعطينا الأسباب، ويجعلنا عاجزين عن العمل، ثم يتحدانا فى أمر اختيارى كإنزال المطر مثلا، وهو أمر أبسط كثيرا علميا من الوصول إلى القمر والمريخ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يقوم به.

وفى القرآن تحديات كثيرة ليست هى موضوع حديثنا الآن، إذ أن الحديث عن الله والنفس البشرية، حين يأتى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويريد أن يتحدى الكفار فى شئ اختيارى، هل الله يريد أن يتحدى كافرا بعينه، أو طبقة من الكفار بعينها كالعلماء أو التجار؟ أم أنه يريد أن يكون التحدى شاملا للجميع، يستطيع أن يقدر عليه كل كافر، حتى ذلك الذى لم يكتب حرفا، لم يعرف من الدنيا شيئا؟ يأتى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويجعل التحدى هنا عاما فى مقدرة كل فرد، فيأتى بالآية الكريمة: ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾(١).

---

(١) سورة مريم : من الآية ٦٥.

أي أنه يتحدى في الاسم، والاسم هنا شئ يقدر عليه كل إنسان، بل ويستخدمه كل إنسان فى الدنيا كلها. فكل فرد يستخدم الأسماء مهما بلغت ثقافته أو علمه أو جنسيته، إلى آخره ، يأتى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويتحدى، ويقول إننى أنا الله، وهذا اسمى، سأختص به نفسى، ولن تجد سميا ـ أى مسمى ـ بهذا الاسم فى الدنيا كلها.

يأتى هذا التحدى ـ وأنا أوجه السؤال إلى كل من يقرأ هذا الحديث ـ هل سمعتم عن إنسان اسمه « الله »؟! هل سمعتم أن عقلا بشريا جرؤ على أن يطلق هذا الاسم على ابن له، أو زوج له، أو على أى شخص كان، حتى الآلهة التى اخترعها الإنسان ليعبدها جعل لها أسماء ليس بينها اسم «الله» سبحانه وتعالى. ولقد جاء هذا التحدى فى أمر اختيارى، أى يستطيع أى إنسان أن يفعله بإرادته، وفى أمر لا يستلزم أى مؤهلات، أى يستطيع أى فرد فى الدنيا أن يقوم به دون أن يكون له ثقافة أو علم، أو فكر، أو أى شئ مميز. أى أنه تحد للبشرية كلها، ومع أن هذا التحدى نزل منذ أربعة عشر قرنا، ومع أن هناك أناسا يعملون ضد دين الله، ويحاولون هدمه، لم يستطع واحد منهم أن يطلق الاسم على فرد أو شئ، أو حتى على إله يعبده، وهكذا بقى التحدى، وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا التحدى لا يقدر عليه إنسان، ولا يمكن أن يقوم به بشر مهما بلغ شأنه، ذلك التحدى فى أمر اختيارى لا يستلزم أى صفات أو مؤهلات معينة، وعجز الإنسان عن مواجهة هذا التحدى هو قدرة من قدرات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده.

ورغم هذا التحدى الذى لا يجيب عليه أحد، تجد بعض الناس يحاولون جاهدين إنكار وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويجادلون فى ذلك جدالا كثيرا، ولكن هؤلاء الناس أنفسهم حينما تعجز الأسباب عن أن تدفع عنهم ضرا، وحين يجدون أنفسهم فى كرب لا يستطيعون الخروج منه، أو فى بلاء لا يستطيعون رده، تجد ألسنتهم تصيح بلا شعور: « يارب »، وتستنجد بالله الذى يحاولون إنكار

وجوده، كيف تستنجد نفس بالله ـ سبحانه وتعـالى ـ وهى فى نفس الوقت تحاول أن تنكر وجود الله، إنها تفزع إليه. يقول: كن، فيكون. كيف يتم ذلك؟.

□□□

الكون والإنسان

كل ما فى هذا الكون مسخر لخدمة الإنسان، ولكن ماذا فعله البشر ليتم ذلك؟ وكيف يستطيعون أن يسخروا لخدمتهم من هو أقوى منهم ملايين المرات؟ إن كل هذه الأشياء تستطيع أن تفنى البشر فى ساعات قليلة، وربما فى لحظات قليلة، ولكنها خاضعة ذليلة لخدمتهم.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمرنا بالتدبر فى الكون، ولماذا يأمرنا الله بهذا؟ لو أن فى هذا الكون دليلا واحدا على عدم وحدانية الله، وقدرته ووجوده، ما أمرنا الله أن نتدبر فى الكون، وأن نتدبر فى مخلوقاته، وأن نتدبر فى أنفسنا، لماذا؟ لأن الذى يعرض عليك شيئا فيه أدنى شك، لا يقول لك افحصه جيدا، أو تدبر فيه، إنك إذا أردت أن تعلم عن أى شئ تراه، فإن صاحب الشئ إذا لم يكن موقنا مما يقوله لك: تدبر، وانظر جيدا، وافحص جيدا، وإنما يحاول بشتى الطرق أن يجذب انتباهك عن ذلك الشئ الذى تنظر إليه، حتى لا تتبين فيه أى نقص أو عيوب موجودة. إنما الذى يقول لك تدبر، وفكر، وانظر، موقن من إتقان عمله.

ولأضرب مثلا بسيطا لأقرب هذا إلى الأذهان، إذا دخلت لتشترى أى شئ فى هذه الدنيا، أى شئ، أمامك واحد من اثنين ، إما أن يكون هذا الشئ متقنا إتقانا بديعا، وحينئذ يقول لك صانعه: افحصه جيدا، ويطلب منك أن تفحصه مرات ومرات، لتتبين دقة الصنع، وتعرف متانة الشئ وكماله، ولكن إذا كان الشئ ناقصا، أو فيه عيوب، فإن صانع الشئ الذى يحاول أن يغشك أو يخدعك يفعل كل ما يستطيع من الحيل ليأخذ انتباهك بعيدا عن ذلك الذى فى يدك، حتى لا تتبين عيوبه ونواقصه.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب منا فى قرآنه الكريم أن نتدبر الخلق، أن نتدبر الكون، ويقول إن هذا الكون فيه آيات بينات، ويقول إن فى خلقكم وخلق السموات والأرض آيات بينات، وفى أنفسكم، لماذا يقول الله ذلك؟ إذا لم يكن

قـائل هذا الكلام هو خـالق الكون. وعـارفا لأسـراره أفـلا يخشى أن تكون هناك عيوب ونواقص، وأشياء لا يعرفها، قد يأتى التدبر فيها بنتيجة عكسية؟!.

ولكن الله ـ سبـحانه وتعـالى ـ هو الخالق، وهو القائل، وهو الـعالم، ومن هنا فهو يعرف دقة ما خلق، وإعـجاز ما خلق. فيقول لنا تدبروا فى هذا الكون، انظروا فيـه، فستـجدون آيات وإعجـازا لخلقى وقدرتى، وفى أنفـسكم، ويقول ـ سبـحانه وتعالى ـ: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[1] أى آيات تلك التى يتحـدث عنها الله ـ سبـحانه وتعالى ـ إن لم يكن هو الذى خلقـها بإتقان وإعجاز، لا يملك البشر أمامه إلا أن يسـجدوا لقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كونه، وفى خلقه ؟!.

إذن هذا التـحدى فى التـدبر فى آيات الكون، والتـدبر فى الخلق، والتـدبر فى أنفـسنا، لا يمكن أن يحـدث إلا إذا كان القـائل هو الخـالق، هو الذى وضع آيات، ومعجزات فى هذا الكون، فـما الذى يريدنا الله أن نتدبره إلا آياته فى الكون، وإذا لم يكن الله ـ سبـحانه وتعـالى ـ خـالق هذا الكون، فكيف يعـرف أسراره كلهـا، ويعلم أن فـيهـا آيات ومعـجزات، إن الذى خلق هو الذى قـال، هو الذى أعـجز، سبحانه وتعالى، ومن هنا فهو يطلب منا أن نتدبر لنرى من الآيات ما يجعلنا نسجد لعظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدرته.

نأتى بعـد ذلك إلى نقطة أخـرى: الله ـ سبحـانه وتعـالى ـ أخبـرنا فى قـرآنه الكريم أنه سخـر كل ما فى هذا الكون لخدمـة الإنسان، تعالوا نتـدبر قليلا فى هذه الحقـيقـة الهامة، كل مـا فى الكون يخدم الإنـسان: الحيـوان، والجمـاد، والشمس، والقمر، والنبات، كلها تخدم الإنسان.

والإنسـان ليس هو الكائن الوحـيـد الحى فى هذا الكون، فـالنبـات له حـيـاة، والحيوان له حياة، والإنسان له حياة، ولكن كلا منها تختلف عن الأخرى.

تعالوا نتـدبر فى خلق الله، الله ـ سبـحانه وتعالـى ـ جعل كل شئ مسـخرا لما فوقـه، الجمـاد مثـلا بكل صوره مـسخـر لخدمـة ما فـوقه من الخلق، وهو النـبات

---

(١) سورة فصلت : من الآية ٥٣.

والحيوان والإنسان، على أن التمييز تمييز الخالق، وليس تمييز المخلوق، بمعنى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى سخر، ولكن الإنسان بقدرته، وعقله، وقوته، عاجز عن أن يسخر، والدليل على ذلك أن هناك أشياء مسخرة للإنسان، والحيوان، والنبات، أقوى منه ملايين المرات، ولا يستطيع أن يوجدها، أو أن يسيطر عليها، الشمس والنجوم، والكواكب، والأرض مسخرة لخدمة النبات والحيوان، والإنسان، الشمس لا تستطيع أن تقول إننى سأشرق هذا اليوم على جزء من هذا الزرع لأعطيه الحياة والنمو، ولن أشرق على جزء آخر ليموت، فالشمس بقدرتها الهائلة، وقوتها التى لا يستطيع أن يقترب منها العالم أجمع، مسخرة لخدمة النبات، تشرق عليه، وتعطيه الحياة والنمو، وتغرب عنه ليتم دورته، وهكذا، وكذلك الرياح، والأمطار، والأرض نفسها، كلها مسخرة لخدمة النبات والحيوان والإنسان، الأرض إذا وضعت فيها الحب لا تستطيع أن تقول لن أعمل على إنماء هذا الحب وتغذيته، ولكننى سأغذى هذا الحب، وكذلك المطر لا يستطيع أن يقول سأنزل هنا اليوم، ولن أنزل غدا، أو لن أنزل فى العام القادم، كل هذه الأشياء مسخرة ليس لها أى اختيار، وهى تعطى عطاء متساويا للجميع بلا تمييز؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى سخرها، وهو الذى جعلها فى خدمة أنواع الحياة التى هى أرقى منها كالنبات، والحيوان، والإنسان، وليعلن للعالم أجمع أن هذه الأشياء هى مسخرة بقدرته ـ سبحانه وتعالى ـ وبعلمه، وبكلمة (كن) جعلها أقوى من الإنسان ، والحيوان، والنبات، ملايين المرات، ومع ذلك هى فى خدمتهم جميعا، لا تستطيع يوما واحدا أن تمتنع أو ترفض أن تقوم بخدمتهم رغم قدرتها وضعف من تخدمهم من البشر، والنبات والحيوان.

هذه واحدة، فإذا انتقلنا إلى النبات نجد أنه مسخر لخدمة من فوقه فى الخلق، وهما الحيوان والإنسان، والحيوان يستطيع أن يأكل من النبات كما يريد ويحطمه كما يريد، ولا يستطيع النبات أن يمنعه من ذلك أو يقول له لا ، لن أعطيك طعاما اليوم، سأمنعه عنك، أو يبعده عنه، إذا أراد به ضرا، وكذلك بالنسبة للإنسان فإن النبات مسخر لخدمته، عطاء له عندما يريد، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا أمام إرادة البشر، حتى فى إهلاكه وإفساده. إذن فالنبات مسخر لخدمة ما فوقه، لا يستطيع له

نفعـا ولا ضرا، وإنما يعطيه عطاء بلا حسـاب، ويكون فى خدمته دائمـا كلما أراد، حتى إذا أراد له هلاكا، فالصبى قد يأتى بفأس أو منشار، ويصل إلى شجرة ضخمة هائلة، ويظل يقطع فـيهـا عدة أيام حـتى تسقط، ولكـن الشجـرة رغم ضخـامتـها وقوتها، حـتى أنه إذا سقط غصن منها على هذا الصبـى أهلكه، بل إذا سقط غصن منهـا على رجل أهلكه، وإذا سـقطت الشـجـرة نفـسـها علـى عدة رجـال أقـوياء أهلكتـهم، رغم أن هذه الشـجرة تملـك هذه القدرة الهـائلة على البشـر، فإنهـا لا تستطيع أن تأمر غصنا منها ليسقط، فيهلك صبيا أو رجلا يقطعها بفأس أو منشار، ولا تستطيع أن تأمر جذعـها أن يسقط على رجال يقومون باقتـلاعها من جذورها، ومن هنا فـهى تملك القـوة، ولكنها لا تملـك القدرة، لماذا؟ لأنهـا مـسخـرة لخدمـة الإنسان والحيوان، رغم قـوتها الهائلة، وقدرتها على التدميـر، إلا أنها تقف عاجزة تماما أمام الإنسان، لماذا؟ لأن الـتسخير هنا من الله ـ سبحـانه وتعالى ـ ومن هنا فلا القوة لها قيمـة، ولا القدرة لها قيمة، وإنما الأمر جميعـا للقائل، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ والقائل هنا سخرها للإنسان، فهى مسخرة له.

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى الحـيوان نجد أنه أرقى حياة من النبات، فـقد منحه الله الحـواس، ومنحه قـدرة على الحـركة، ومن هنا فـهو أعلـى خلقا من النبـات، ومن الجمـاد، وكل خلق تحتـه مسخـر له، لخدمتـه، ولكن الحيوان نـفسه مـسخر لخـدمة الإنسان، وقد يكون الفرس، أو الجامـوسـة ، أو الثور، أو الجمل، أو أى حيوان آخر يملك من القدرة والقوة ما يستطيع أن يحطم به أقوى رجل فى العالم ويهلكه، ومع ذلك فإن صـبيا صغـيرا يستطيع أن يقـود الجمل ، أو الفرس، أو الثـور، إلى حيث يريد ، وهو طائع له، لا يسـتطيع أن يعصـيه، إذا تدبرنا فى ذلـك، فإن العقـل يقول مادام الحيـوان هو الأقوى فهو الذى يتـحكم ويفرض مايريد، ولكن الله ـ سـبحانه وتعالى ـ الذى أراد ذلك سـخر الحيوان القـوى فجعله ضعـيفا ذليلا أمـام الإنسان الذى يقل عنه قوة وقدرة.

إذا انتقـلنا بعد ذلك إلى الإنسـان، فهـو له حياة أرقـى من النبات، والحـيوان، لماذا؟، لأن له فكرا، له عـقلا، وله اخـتيارات، ومن هنا فـهو أرقى مـا خلق الله فى الدنيـا، رغم قدرة الشـمس، وقوة الريـح، وجبـروت الأمطار، وضخـامة النبـات،

والقدرة البدنية للحيوان، فإن هذا الإنسان أرقى هؤلاء جميعا، وكل هذه الأشياءمسخرة لخدمته، بإرادة الله، وليس بإرادة الإنسان.

فإذا كانت مخلوقات الدنيا هى: الجماد. والنبات، والحيوان، والإنسان، وكل خلق منها يعلو على الآخر فيكون مسخرا له، وهذا لا يتوقف على القوة، ولا على الحجم، وإنما على إرادة الله. الجماد يخضع للمخلوقات الأرقى منه، وهى النبات والحيوان والإنسان. والنبات يخضع لمن فوقه، وهما الحيوان والإنسان، والحيوان يخضع لمن فوقه وهو الإنسان، فلمن يخضع الإنسان؟ يخضع لخالقه، يخضع لله ـ سبحانه وتعالى ـ ليكون هناك انسجام فى الكون، كل شئ يخضع لما فوقه، ومن هنا يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾(١).

ومن هنا كان هدف الإنسان أن يخضع لخالقه الذى سخر له كل ما فى الكون، وهذا هو الذى يعطى الحياة معناها الحقيقى؛ لأن كل شئ يخضع لما فوقه.

ونحن حين نتدبر فى الكون نرى كيف أن الإنسان يجب أن يخضع لخالقه، ليتم الانسجام فى الكون، وعلامة الخضوع هى العبادة، وهذا هو هدف العقل الأول فى أن يعرف ماذا يجب أن يؤدى وأن يتدبر فى الكون ليعرف أن كل شئ يجب أن يخضع لما فوقه ، وأن الإنسان يجب أن يخضع لخالقه الذى خلق هذا الكون كله، وسخره لخدمته.

ولكن العقل البشرى ينسى الله، وينسى كل هذه المعجزات، ويتحدث عن العلم، وعصر العلم، فماذا استطاع العلم أن يحقق للبشر؟ !.

□□□

---

(١) سورة الإسراء : من الآية ٧٠.

الإنسان والعلم

العلم لا يستطيع أن يخلق مقومات الحياة، فما بالك بالحياة نفسها؟! إن الإنسان عاجز عن أن يخلق غلافا جويا للقمر مثلا، أو بحيرة بالماء اللازم للحياة، والزرع، أو أن يجعل حبة تنبت على يدك، بدلا من أن تنبت على الأرض، والقرآن الكريم يقول لنا إن هناك مضلين، سيأتون ليجادلوا فى خلق الإنسان.

إن العلم يتحدد فى شيئين رئيسيين: علم مادى يخضع للتجربة البحتة، لا يدخل فيه هوى البشر ، ذلك العلم هو الذى يتناول المادة فقط، وهو الذى يمكن أن يفحص فى المعمل، وتجرى عليه التجارب، وليس فيه هوى النفس البشرية، وهذا العلم هو الذى أتاحه الله للعقل البشرى، وطلب منه أن يجتهد فيه، ووعد الله بأن يكشف آياته فى الكون لأولئك الذين يعملون، ويبحثون، ويجرون التجارب، ويجتهدون. وعلم آخر هو علم تدخل فيه الأهواء، وذلك ما لم يدخل فيه معمل، ولا يمكن إجراء تجارب عليه، وهذا العلم مثل النظريات الفلسفية والسياسية، وكل شئ لا يخضع لتجربة المعمل، هذا العلم تختلف فيه الأهواء وتتصارع، وسيظل الصراع بينها إلى يوم القيامة؛ لأن هذا العلم لا يستند على أسس مادية موضوعية بحتة، وإنما تدخل فيه الأهواء الشخصية.

النوع الأول من العلم صاحبه يظل يعانى حتى يصل إلى هدفه، فإذا وصل إلى الهدف استفاد منه الناس كلهم، فالعالم مثلا الذى يجرى تجارب فى معمله على اختراع جديد، أو شئ جديد، يظل يسهر ليالى طويلة حتى يصل إلى نتائج، فإذا وصل إلى نتائج استفادت منها البشرية كلها، وإذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك، فهناك مثلا اكتشاف الكهرباء، واختراع الراديو والتليفزيون، والتليفون، إلى آخر هذه الأشياء التى اقتضت بحثا من أصحابها، فإذا وصل البحث إلى نتيجة استفادت منها البشرية كلها.

أما النوع الثانى من العلم فهو الذى يخضع للهوى، فإن صاحبه هو الذى يستفيد، وغيره يعانى، ذلك أنه يضع العلم على هواه، وعلى أساس ما يرضيه هو ،

ومن هنا فإن صاحب النظرية الفلسفية أو السياسية لا يعانى شيئا بقدر ما يعانى أولئك الذين يخضعون لها، أو ينفذونها.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى بعد هذه المقدمة القصيرة ليقول: ماذا قدم العلم للبشرية؟ تعالوا نناقش ذلك من واقع التجربة العلمية، إن أساس الحياة البشرية من خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يتغير، ولم يتبدل، ولا يستطيع العلم أن يجد له بديلا، وإنما العلم يقدم الرفاهية للبشر، أى أنه يجعل الحياة أكثر سهولة، وأكثر نعومة، ولكنه لا يعطينا مقومات الحياة، بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ علما منه بظلم الإنسان للإنسان، جعل مقومات الحياة فى يده، وما أعطاه منها ليد البشر أعطاه بشكل لا يجعل الإنسان قادرا على هلاك الإنسان باستخدام أسباب الخلق.

ولنشرح هذه النقطة قليلا، مقومات الحياة من كرة أرضية، وشموس، ونظام كونى لا دخل للإنسان فيه، ولا يستطيع، ولن يستطيع الإنسان بعلمه أن يتدخل ليخلق كرة أرضية جديدة، أو شمسا جديدة أو نجوما جديدة أو سموات جديدة، إلى آخر هذا، هذا خلق الله، والعلم إذا استطاع أن يكتشف الآيات فى هذا الخلق، يكون قد تقدم تقدما هائلا، ولكنه لن يستطيع أن يخلق شيئا، أو يبدله، أو يغيره، وإذا كنا نتحدث الآن، ونحن فى عصر العلم، فتلك حقيقة هامة، لا يستطيع أحد الجدال فيها.

نأتى بعد ذلك إلى مقومات الحياة على الأرض: الهواء ، والماء، والطعام، لوازم ثلاثة لحياة الإنسان على الأرض، الإنسان بطبعه لا يستطيع العيش بدون الهواء أكثر من دقيقة أو دقائق، ولذلك أخرج الله الهواء من قدرة البشر على التحكم فى البشر، فالله شاء أن يكون الهواء مباحا للناس جميعا، لا يستطيع واحد أن يمنعه عن مجموعة من الناس فتهلك، بل إنه أخضع الهواء لعدله، فكان متساويا بين الناس جميعا، فقيرهم وغنيهم، عظيمهم وذلك الذى لا يملك من أسباب الدنيا شيئا، فهم جميعا يتنفسون بنفس السهولة، وبنفس الطريقة دون أى عناء، يصلهم الهواء إلى حيث هم وأينما كانوا فى حجرات مغلقة، أو فى الطريق،

أو فى السيارة، أو فى أى مكان فى العالم، فإن الهواء يصلهم سهلا، ميسرا، متاحا، للجميع، وهذا عدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا دخل لبشر فيه.

نأتى بعد ذلك إلى الماء، وهو ما يستطيع الإنسان أن يعيش بدونه يوما، أو عدة أيام، نجد أن القدرة على اختزان الماء قليلة، والقدرة على منع الماء عن البشر قليلة، ومحدودة، وإن كانت لها إمكانيات، وهنا يتدخل ظلم الإنسان، ولكن بقدر محدود جدا، نظرا لأهمية الماء للحياة البشرية، نأتى بعد ذلك للطعام، فنجد أن قدرة الإنسان على اختزانه ومنعه أكبر، ولكن احتمال الإنسان لعدم تناول الطعام أكثر، فإن الإنسان يستطيع أن يتحمل عدة أيام بدون طعام، ولكنه فى نفس الوقت يستطيع أن يحصل على ما يقيم أوده، أو يبقى الحياة فى جسده بسهولة؛ نظرا لأن الكمية التى يحتاج لها الجسم البشرى من الطعام ضئيلة نسبيا، فهى كما قال رسول الله ﷺ لقيمات، أى: كمية محدودة من الطعام، وكلما زاد إقبال الإنسان على الطعام فسد جسده واعتلت صحته .

وهذ هى مقومات الحياة الثلاثة، شئ لا يستغنى عنه الإنسان، ولا يستطيع الحياة بدونه أبدا وهو الهواء، نافذ فيه عدل الله، ليحصل كل إنسان على حاجته بلا عناء، وشئ يستطيع الإنسان أن يستغنى عنه يوما وهو الماء، متوافر للناس، وشئ ثالث وهو الطعام، تحكم البشر فيه أكثر، ولكن احتمال الإنسان للعيش بدونه أكبر، وهنا ترى عدالة السماء فى توزيع مقومات الحياة، وتدخل الإنسان فيها.

نأتى بعد ذلك إلى العلم، ماذا استطاع العلم أن يقدم للإنسان من هذه المقومات؟ الهواء المحيط بالأرض هل يستطيع العلم أن يخترع غلافا جويا؟ كذلك الذى يحيط بالأرض؟ أو أن يوفر الهواء على كوكب القمر مثلا، مثل توفير إرادة الله للهواء حول الأرض، وبنفس العدالة؟ الجواب: مستحيل طبعا، فإذا انتقلنا من الهواء إلى الماء، هل يستطيع العلم أن يمد ماء، أو يوصل ماء لكوكب من الكواكب ليس فيه ماء ويجعل الحياة ممكنة فيه؟ هل يستطيع العلم أن يخلق ماء على كوكب من الكواكب ، كالماء الموجود على الأرض يشرب منه ألوف الملايين من البشر والحيوانات، والطيور، وكل شئ حى، بحيث يكون متوافرا، ويسقى

هؤلاء جميعا، ويسقى أرضهم، وينبت لهم الزرع ليأكلوا منه؟ الجواب: مستحيل، فالعلم عاجز عن أن يمد الصحارى فى الأرض بالماء اللازم لها لتزرع، وهناك مساحات شاسعة من الأرض صحراء جرداء، لا يستطيع العلم أن يعطيها الماء.

بل إننا نجد الصحراء تمتد بجوار الأرض الخضراء، تلك فيها حياة، والأخرى ميتة لا حياة فيها ولا ماء، والعلماء يعترفون أن العلم عاجز عن أن يسقى البشر ماء رغم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أتاح للعلماء معرفة تكوين عناصر الماء، وطريقة تكوين السحب، ولكن كل هذا هو من خلق الله، والعلم لا يستطيع أن يقدم شيئا فى ذلك، ولا يستطيع أن يخلق ظروف الحياة على كوكب لا حياة فيه.

ننتقل إلى الطعام، هل يستطيع العلم أن يجعل حبة تنمو على يدك، أو على شئ غير الأرض، أو التربة الأرضية؟ هل يستطيع العلم أن يزرع زرعا فى الهواء فينمو ويزدهر؟ لا يستطيع، بل يجب أن ينمو الزرع فى الأرض، وأن يتغذى من التربة وبالماء، ومن هنا فإن مقومات الحياة الثلاثة لا يستطيع العلم أن يقدم للإنسان فيها شيئا، ولا يستطيع أن يعطيه فيها بديلا، الإنسان محتاج إلى الهواء، والماء، والأرض ليعيش، والعلم عاجز عن أن يخلق له ماء أو هواء أو أرضا جديدة.

وكل ما يستطيع أن يقدمه العلم هو الرفاهية، بمعنى أننى عندما أحس بالعطش يجب أن أذهب إلى النهر أو إلى النبع، أو إلى مكان فيه ماء لأشرب، العلم يجعل هذا الماء يصل إلى مكانى مثلجا، وبالنسبة للطعام، المفروض عندما أجوع أن أذهب إلى المكان الذى يزرع فيه الطعام أو ينبت فيه لآكل، العلم يوفر لى هذا الطعام فى بيتى، ويستطيع أن يكتشف طريقة لتحسين الإنتاج وتطويره، بحيث يكون الحجم أكبر، والطعام أشهى، ولكنه لا يستطيع أن يخلق طعاما، والعلم يوفر لى رفاهية فى العمل الذى أقوم به، فيخترع لى آلة بدلا من الفأس التى أستخدمها فى الزراعة، ويخترع لى آلة حاسبة أو عقلا إلكترونيا يقوم بالحسابات، وييسر لى الانتقال السريع بالطائرة، إلى غير ذلك من وسائل الانتقال، ولكنه لايخلق لى شيئا من مقومات الحياة، وهذا واضح فى قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة الواقعة حينما يتحدث عن مقومات الحياة، وكيف أنها من صنعه ـ سبحانه وتعالى ـ

فيقول: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾[1]، ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) ﴾[2]، ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾[3].

بقيت نقطة هامة جدا وهى نقطة الخلق، وهذه محتاجة إلى حديث قادم حيث إن هناك من يجادل فى خلق الله، وهناك من يحاول أن ينكر الدين، والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أنبأنا عن هؤلاء فى القرآن، وقال لنا الله إن هناك أناسا مضلين سيأتون، ويحاولون أن يضلوكم عن دينكم، ويتحدثوا عن خلق السموات والأرض، وعن خلق الإنسان، وهم سيحاولون إضلالكم عن الحق، هؤلاء المضلون الذين أنبأ القرآن عنهم قد جاءوا، وبدأوا فى محاولة إضلال الناس، ولكن مجيئهم كان تثبيتا للدين، وتصديقا للقرآن، فلو أن هؤلاء المضلين لم يجيئوا ولم يجادلوا فى خلق السموات والأرض، لكان عدم مجيئهم ضد قضية الدين ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قد قال لنا إن هناك مضلين، وإنهم سيأتون، ويجادلونكم فى الخلق، فكأن هؤلاء المضلين فى محاولاتهم التشكيك فى الدين، إنما يثبتون أن هذا الدين حق، ولكن كيف؟.

□□□

(١) سورة الواقعة : الآيتان ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) سورة الواقعة : الآيتان ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) سورة الواقعة : الآيتان ٧١ ـ ٧٢.

الإنسان وخلق الله

من الذى ميز الإنسان عن أى إنسان آخر مخلوق مثله، رغم تشابه الخلق؟ وجعل الفرد رغم تشابه الخلق مميزا عن الدنيا كلها، بحيث لا يتكرر شخص رغم تكرر الخلق، هل تستطيع أن تميز بين عصفورة وعصفورة؟ أو بين قرد وقرد؟ أو بين أسد وأسد؟ ولماذا التمييز؟.

وإذا أردنا أن نستشهد بالقرآن الكريم في أمر هؤلاء الذين يضلون عن سبيل الله، فإننا نجد الآية الكريمة: ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾(١) ومعنى الآية الكريمة أن هناك أناسا سيأتون ليضلوكم عن سبيل الله، ويتحدثوا عن خلق الإنسان، وخلق السموات والأرض بنظريات من صنع هواهم، لا تستند إلى الحقيقة ولا إلى الواقع، وأنا أقول من الآن إن هؤلاء الناس لم يشهدوا معى، أو لم أشهدهم خلق الأرض، ولا خلق الإنسان، وما كنت متخذا من هؤلاء المضلين عونا لى فى الخلق حتى يقولوا ما يعلمون.

لو لم يأت هؤلاء المضلون لقلنا إن القرآن قد أخبرنا أن هناك من يأتى ليضل عن سبيل الله، وهؤلاء لم يأتوا، ولو أن هؤلاء الناس لم يجادلوا فى خلق السموات، وخلق الأرض، وخلق الإنسان، لقلنا إن القرآن قد أنبأنا أن هناك أناسا سيجادلون فى الخلق، ويضلون عن سبيل الله، ولكن هؤلاء الناس جاءوا ليضلوا عن سبيل الله، وتركوا مسألة خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان، ولم يجادلوا فيها باعتبار أنها مسألة غيبية، ومن هنا كان من الممكن جدا أن يأتى هؤلاء المضلون ويجادلوا فى الله، ولكن عندما تأتى نقطة خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان، يقولون لن نجادل فى هذا الأمر، حيث إنه أمر غيبى خارج عن نطاق علمنا، ولم نشهده، ولا نستطيع أن نجادل فيه، كان من الممكن أن يحدث هذا

---

(١) سورة الكهف : الآية ٥١ .

فعلا، ولكن كون هؤلاء المضلين أتوا، وكونهم جادلوا فى خلق السموات والأرض، وفى خلق الإنسان، وجادلوا دون برهان مادى يستطيعون تقديمه، فهم لا يستطيعون مثلا وضع الشمس والقمر داخل معمل لإجراء تجارب عليهما ، أو إدخال الروح البشرية تحت الميكرسكوب، ولكنهم رغم علمهم المحدود جاءوا وجادلوا فى هذه الأشياء، ليس عن علم، ولكن عن هوى، حينئذ نقول إن هؤلاء المضلين قد قدموا الدليل على صحة القرآن وأنه منزل من عند الله، وهنا المعجزة، وهم يحاولون الإضلال عن سبيل الله، أى أنهم أثبتوا أن الله حق، وأن القرآن حق، بينما هم يحسبون أنفسهم أنهم يضلون.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فيقول: إذا أردنا أن نناقش أحدا من الذين يضلون عن سبيل الله، أو ينكرون وجوده ـ سبحانه وتعالى ـ فإنهم لا يقدمون الدليل، أو الحجة على ما يقولون، ولا يناقشون جوهر الرسالة نفسها، يأتى الواحد منهم ليقول إن هذا القرآن ليس منزلا من عند الله مثلا، وهذه قضية جدلية، لا يستطيع أن يثبتها، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخبره بهذا، وهو لم يأت بعلمه الإنكارى عن أى طريق يقينى، وإنما هو أتى به عن طريق هوى فى نفسه ، يريد أن يحققه بالهروب من شريعة الله إلى شريعة أخرى تعطيه فوق ما له من حقوق، وتسلب الآخرين ما لهم من حقوق.

ومن هنا فإننا إذا أردنا أن نناقش هذا الموضوع لا يجب أن نبدأ المناقشة بهذه النقطة، ولكننا يجب أن نقول لكل من يجادل فى الله محاولا الإنكار: تعال وناقشنا فى المنهج الذى وضعه الله، تعال وناقشنا فى المبادئ التى وضعها الله، ولكننا نجد أنه يهرب من المناقشة، ويحاول أن يتخلص منها.

على أن الذين يجادلون فى خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان، إنما يأتون بأشياء عجيبة، يحاولون إلباسها ثوب الحق، وهى باطل، ويحاولون أن يخدعوا الناس بأشياء كثيرة لا تمت إلى العلم بصلة، نجد واحدا يأتى ويقول إن أصل الإنسان قرد، ثم هناك حلقة مفقودة، ونظرية الارتقاء، إلى آخر ما يقال فى هذا الموضوع، هذا شئ مبنى على الظن، فالرجل الذى قال هذا الكلام لم يشهد

قردا تحول إلى إنسان، ولا يستطيع أن يحول قردا إلى إنسان، إذن فهى نظرية غير يقينية مبنية على افتراضات شكلية بعيدة عن العلم تماما.

ولكننا حين نبدأ المناقشة معه فى المضمون نقول له: تعال، هل شهدت قردا يتحول إلى إنسان؟ سيقول: لا، هل تستطيع أن تحول قردا إلى إنسان؟ سيقول: لا، هل شهدت خلق الإنسان يقول: لا، نقول إذن علام تبنى نظريتك، على أى أساس؟ يقول: على الملاحظة والتخمين، نقول له: إذا كان كذلك، فلنناقشك بالملاحظة والتخمين كما بنيت نظرياتك.

هل تستطيع أن تفسر لنا كيف ميز الله الإنسان؟ سيقول: إنها نظرية الارتقاء، نقول له: نريد أن نتوقف قليلا، الإنسان كمخلوق من خلق الله مثله مثل باقى خلق الله، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ميزه بأشياء كثيرة، أهمها العقل الذى يميز به الإنسان بين الحق والباطل، والذى يكون فى كثير من الأحيان هو الطريق إلى الضلالة، إذا وضع العقل البشرى كحكم مطلق، وزاد عليه الغرور الإنسانى.

والآن فلنبدأ : هل تستطيع أن تميز بين عصفور وعصفور آخر من نفس الجنس؟ هل تستطيع أن تميز بين حصان وحصان آخر من نفس الجنس واللون؟ وهل تستطيع أن تميز بين جاموسة وجاموسة، أو قرد وقرد، أو أسد وأسد، أو أى حيوان وحيوان آخر؟ الجواب طبعا: لا، ولكنك تستطيع أن تميز بين إنسان وملايين البشر، رغم أننا كلنا مخلوقون بنفس الشكل، فكل منا له عينان، وأذنان، وأنف، وفم، ويدان، وقدمان، أى أن الشكل العام واحد، ولكن كل إنسان له صورة معينة، تميزه عن ملايين البشر، فأنت حين ترى إنسانا بين الملايين التى تسكن الكرة الأرضية، تقول: هذا على ، وهذا إسماعيل، وهذه فاطمة وهذه زينب، وهذا أبى، وهذه أختى، إلى آخر كل هذا.

من الذى ميز الإنسان عن أى إنسان آخر مخلوق مثله، وجعل هذا التمييز تمييزا خاصا، رغم تشابه الخلق، ووضع هذا التمييز فى كل إنسان ليستطيع أن يميز زوجته وابنه وأباه، وأصدقاءه ، إلى آخر هذه العملية، بل ويستطيع هو أن يكون مميزا عن الناس أجمعين؟ الذى فعل هذا هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليستقيم ذلك

مع الحيـاة التى رسمهـا له، فهـو مميز فى الدنيا ليـمكن حسـابه فى الآخرة، ويكون شهيدا على نفسه، وهو مميز فى الدنيا ليكتب عمله له أو عليـه، وهو مميز فى الدنيا لأنه سيحـاسب فى الآخرة، فلو أن الإنسان كان غـير مميز، والخلق متشابه، لكانت حيـاة الإنسان على الكرة الأرضية مـستحيلة التـنظيم، لماذا؟ لأن الإنسان لم يخلق للدنيا وحـدها، وإنما خلق للدنيا وللآخـرة، خلق وسيحـاسب ويكون شهـيدا على نفسه، وأنا حين لا أستطيع أن أمـيز أبى وأمى وأولادى، وزوجتى، والناس حولى، كيف يمـكن أن أحاسب؟ وكـيف يمكن أن يأتى هؤلاء الناس الذين أسأت إليـهم، وأكلت حـقوقـهم، فى الآخرة ليكونوا شـهداء ويأخـذوا حقـوقهم من حـسناتى؟ وكيف يمكن أن أكون شهيدا على نفسى، وأنا لا أميزهم؟ وكيف يمكن أن أحاسب على اتصالى بامرأة أخرى وأنا لا أميز زوجتى، إذن التمييز هنا ضرورى وأساسى، وقد وضـعه الله بإعـجاز شديد، رغم تشـابه بلايين الخلق، فإن لكل إنسـان صورة مميزة لا تتكرر ، والدلـيل على ذلك صور وتماثيل الملوك الأقدمـين التى تركوها فى الأرض، الفراعنة مـثلا ماتوا منذ قـرون، فهل تستطيع أن تأتى بإنسـان وتقول: هذا رمسـيس، أو هذا هو نابليـون؟ الجواب: مسـتحـيل، الإنسان قـائم بذاته، لا يتكرر رغم تكرر الخلق، ومن هنا فـإن الحـساب يكون عـدلا، ويقول الرسـول ﷺ إنه حين يتشفع المؤمنون للعاصين فى الآخرة لإخـراجهم من النار، يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ «**اذهبـوا وأخـرجـوا من النار من كـان في قلبـه حـبـة خـردل من الإيمان**» فيذهبـون إلى النار، فيعرفونهـم بصورهم، إن حياة الإنسان كـحيوان بلا تمييـز ممكنة إذا كان الهـدف هو الدنيا وحـدها. ذلك أن هناك ألوفا من المخـلوقات تعيش بلا تمييز.

ولكن ماذا عن الآخرة؟

إذن تمييز الإنسان ضرورى للحساب فى الآخرة،ولو أنه لم يكن هناك حساب وثواب وعقـاب، لما ميز الإنـسان عن غيـره من سائر المخلوقات، ولـكان الخلق قد تشابه كما هو فى عـالم الحيوان مثلا، هذا التمييز الدقـيق جدا، المعجز ، لايمكن أن يأتى بالتطور؛ لأنه غـاية فى الدقة، وغاية فى الإعـجاز، خلق متـشابه فى كل شئ،

ومع ذلك كل إنسان فيه مميز عن الآخر تمييزا دقيقا، بحيث لايتطابق إنسان فى هذه الدنيا كلها مع إنسان آخر، بل لا يتطابق فى الخلق من أوله إلى يوم القيامة إنسان مع إنسان آخر،أترى الإعجاز الذى يجب أن يسجد له كل ما فى السموات والأرض؟! إن الإنسان لا يستطيع، ولا يقدر مهما بلغت عبقريته، ومهما استعان بقوى الأرض جميعا أن يصنع أشياء متكررة متميزة لا يشبه أحدها الآخر، مستحيل، و فكر قليلا فى كل شئ يصنعه الإنسان، بل تصنعه أكبر عقول البشر، لايمكن تمييزشئ متشابه بحيث يكون لكل فرد منه شخصية معينة، ليكون مميزا تمييزا دقيقا عن البلايين غيره، أى ارتقاء هذا الذى يتجاوز كل قدرات الدنيا؟! أى ارتقاء يمكن أن يضع هذا الإعجاز المطلق فى طفرة واحدة ولا مقدمات، أى ارتقاء ذلك الذى يقفز بالإنسان ليجعله سيد الأرض كلها، ويجعل كل شئ مسخرا لخدمته؟!.

ولكن بعض الناس يحاول أن يفرض أشياء خاطئة، ثم يدعى كذبا أنها الحقيقة، وفى خلق الإنسان معجزات لايمكن أن تكون طفرة، ولا ارتقاء، ولا أى شئ، مثلا العقل البشرى، ذلك الذى ميز به الله ـ سبحانه وتعالى ـ آدم وذريته، والعقل البشرى إذا أردت أن تخلق عقلا إلكترونيا فى قوته، فإنك محتاج إلى أضعاف مساحة الكرة الأرضية، لتقيم هذا العقل؛ لأن العقل البشرى الصغير الذى تراه أمامك فى هذه المساحة المحدودة مكون من ألف مليون خلية عصبية، وأريدك أن تضع معى خيالك قليلا ، ألف مليون خلية فى هذه المساحة الصغيرة؟! هذه الألف مليون خلية تعمل وتترجم وتهاجم وتدافع، وهناك ثلاثة آلاف شعيرة تتذوق الطعام وتقول للإنسان هذا حلو، وهذا مر، وإذا اقترب جسدك من شئ حار صرخت ٣٠ ألف خلية فى مخك، احترس؛ هذه نار، إلى آخر الإعجاز فى الخلق.

كل هذا الإعجاز لايمكن أن يتم بالارتقاء أبدا، فالطفرة رهيبة بين الإنسان وغيره من المخلوقات، لايمكن إلا أن ينطبق عليها قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: **﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**(١).

---

(١) سورة الإسراء : من الآية ٧٠ .

على أن بعض الناس يجادل ويقول: كيف يكون هناك من هو موجود بلا حيز ولامكان ولا زمان؟ وأنا أقول: انظر إلى نفسك تعرف الجواب.

□□□

ليس كمثله شيء

الأشيـاء يجب أن تنسب إلى الفاعل لتستطيع أن تدرك معـناها، فإذا قلت إن طفلا ضربنى بكل قوته، وقلت إن أقوى رجل فى العالم ضربنى بكل قوته، فالفعل واحد، ولكن الفـرق بين الفاعلين كبيـر، وإذا كان هذا فى قوانين البشـر، فما بالك بقدرة الله ! !.

يأتى هؤلاء المضلون محـاولين استغفال عـقول البشر،وإثارة قـضايا لاتتفق أو تتصـادم مع ظاهر العقل البـشرى، والله ـ سبـحانه وتعالى ـ قـد جعل لكل قضـية تتصادم مع ظاهر العقل البشرى حلا يقربها إلى ذلك العقل، حتى يستطيع الإنسان أن يواجـه هؤلاء المضلين بالحجـة البـالغة التى هى من عطاء الـله للنفس البشـرية، فالله ـ سبحانه وتعـالى ـ كان لطيفا فى علمه، لطيفا بعبـاده، فأعطاهم أمثلة تقرب إلى عقولهم مـا يعجزون عن فهمـه، مثلا يقول أحد الذين يضـلون عن سبيل الله، ويحاولون إيجـاد تصادم وهمى بين كلام اللـه والعقل البشـرى: كيف يكون هناك من هو موجـود بلا حيز ولا مكان ولازمان، وأنـا أقول إن الله ـ سبحـانه وتعالى ـ بسط هذه المسـألة، وجعلها فى أنفـسنا لتقـرب منا الصورة وتجعـلها موجـودة أمام العقل البشرى بشكل قريب.

والسؤال الذى أطرحه هنا هو عن الإنسان، عن نفـسك، أنت تتساءل عما هو موجـود بلا حيـز ولامكان ولازمان، وأنا أسـألك عن روحك، أين هى هذه الروح التى تجعل كل جسدك يعمل وينطق ويرى ويعيش؟ هل هى فى قلبك الذى ينبض بلا توقف مادامت الروح فيك؟ أم هى فى عينيك تجعلهما يبصران فتريان الأشياء؟ أم هى فى أذنيك تجـعلهما تـسمعـان؟ أم هى فى صدرك تجـعله يتنفس؟ أم هى فى معدتك تجعلها تقوم بوظيفتها لتغذية جسمك؟ أم هى فى اليدين تجعلهما تتحركان وتفعـلان ما تريد، وتبطشان بمن تريد، أم هى فى قـدميك تمشى بهما وتجـرى كلما شئت؟أم هى فى أمعائك تجعلها توصل الطعام للدم؟ أم هى فى عقلك تجعله يفكر ويحـسب، ويدبر لك شـئون حـياتك؟ أم هى فى دمك تجـعله ينبض ويجـرى فى عروقك ليعطيك الحياة ؟ أين مكانها بالضبط؟ هل تستطيع أن تحدده؟.

قد يرد بعض الـناس ليقولوا إنهـا فى عقلك، فـهو الذى تتصـرف به، ويعطى الإشـارات لكل شئ ليـتحـرك، ولكن هذا مـردود عليـه بأن فى الجـسم مئـات من الأشياء غير الإرادية التـى تعمل دون إرادة الإنسان، فالقلب ينبض بلاإرادة، والدم يمشى فى العروق بلا إرادة، والتنفس يتم بلا إرادة، والمعدة تعمل بلا إرادة، إلى آخر ما نستطيع أن نعدده فى الجسم البشرى، إذن فهناك الروح وهى مخلوق لله سبحانه وتعـالى، وقد وضـعهـا الله فى جسـدك، ورغم ذلك،رغم ضيق المكان، وتحـديده فـإنك لا تستطيع أن تـقول أين هى الروح على وجـه الدقـة، ولا تستطيع أن تحـدد مكانها لتقول هنا فى هذه النقطة توجـد روحى، فإذا أردنا أن نحدد الوزن نقول إن الجسد لا يفـقد شيئا عند الموت، الوزن واحد تمامـا، ومع ذلك فإن الروح تكون قد خرجت من الجسم، ومن هنا فإنك لا تستطيع أن تحدد للروح مكانا ولا وزنا، وهى مخلوق من مخلوقات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإذا أردت أن تحدد لها الزمان تحديدا علميـا مطلقا يعتمـد علىّ أبحاث المعمل دون هوى من النفس فـإنك لا تستطيع ، فأنت لا تعرف إن كانت روحك موجودة قبل ولادتك أم لا، ولاتعرف أين تذهب بعد الموت، ولا تعرف عمرها حتى يوم القيـامة ولا بعد يوم القيامة، ولو أن الله لـم يخبـرنا بأمرها قـبل ميلاد الإنسـان وبعد وفاة الإنسـان لعجـزنا عن أن نعرف ذلك تمامـا، بل إنك لاتعرف كم تلبث الـروح فى جسـدك رغم كل ما يحـاول العلم أن يحدده، فالإنسـان قد يموت فجأة من مرض أو صدمـة أو حادث لايمكن أن يتنبأ به أحـد، ولا تدرى نفس متى وقـت الموت، ولايمكن أن تدرى مهـمـا بلغ التقـدم فى العلم، ولا يمكن أن تدرى بأى أرض تموت، إذن الزمـان هنا غير مـوجود، والمكان غير مـوجود، والوزن أو الشئ المادى غير موجود، هـذا فى خلق من خلق الله، فما بالك بالله سبحانه وتعالى؟!.

على أننا بعد ذلك إذا انتقلنا إلى نقطة ثانيـة، وهى الموت والحياة، نجد أن الله ـ سـبحـانه وتعالى ـ قـد أعطانا من الموت شيـئـا يقربنا من الخلق، فـإن الموت نقض للحـياة، ونقض الشئ يأتى على عكـس بنائه، فأنت حين تبنى عـمارة تبـدأ بالدور الأول أو الأسـاس، وحين تهـدمـهـا تبـدأ بالدور الأخـيـر، وأنت حين تذهب إلى الإسكندرية مثلا وتنزل فى محطة سيدى جابر، فإنك حين تريد العودة إلى القا هرة

تبدأ من محطة سيدى جابر، إذن الموت نقض للحياة، أول ما يخرج من الجسد هو الروح، وبذلك تكون آخر شئ قد دخل فيها، ثم يتصلب الجسم إلى حمأ مسنون، ثم يتحلل إلى طين لازب، ثم إلى تراب ، وهذه الأطوار هى العكس المقابل لأطوار الخلق، كما ذكرها القرآن الكريم.

على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يريد أن يعطينا، يعطينا قضية عامة، فإذا رأيت فيها شيئا يقف فيه عقلك ـ لأنه يخالف ما تعتاد وتألف ـ فضعها تحت عنوان (سبحان الله)، و(ليس كمثله شئ).

ونفسر هذه العبارة قليلا، إذا قلت إن فلانا قد ضرب فلانا بكل قوته. هل تعنى نفس الشئ، الجواب: أبدا، لا يكون للشئ معنى إلا إذا نسب لفاعله، ووضعت فيه قدرات هذا الفاعل، بمعنى أننى إذا قلت إن طفلا صغيرا عمره أشهر ضربنى بكل قوته، وقلت إن بطل العالم فى الملاكمة ضربنى بكل قوته، فهناك فرق كبير بين المعنيين، الأول ضربه لا يؤثر فى، ولا أحس به، والثانى ضربه قد يقتلنى، مع أن الاثنين قد استخدما كل قوتهما التى وهبها الله لهما فى عملية الضرب، ولكن الفعل هنا يتناسب مع القوة، فالطفل الصغير لا أكاد أحس بضربه، وبطل العالم يستطيع أن يحطم ضلوعى بسهولة، هذا فى قدرة البشر المحدودة، هذا فى قوة المخلوقات، فما بالك بالله ـ سبحانه وتعالى ـ الخالق؟!.

وإذا أخذنا هذا المثل، ووضعنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحت عبارة (سبحان الله) و(ليس كمثله شئ) استطعنا أ ن نقرب كثيرا من المعانى التى قد يستغلها البعض لإضلال البشر. لله ـ سبحانه وتعالى ـ قوة، ولى قوة، ولكن هل قوتى مثل قوة الله سبحانه وتعالى ؟ لله سبحانه وتعالى علم، ولى علم، ولكن هل علمى مثل علم الله سبحانه وتعالى؟ والله حى ، وأنت موصوف بالحياة، فلا تقول إن حياتك مثل حياة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كوجودك، وعلمه ليس كعلمك، وقدرته ليست كقدرتك ، ومن هنا يخرج وجه المقارنة، حيث إنه لا مقارنة، فالله بقدراته وقواته يأتى تحت وصف (سبحان الله) و(ليس كمثله شئ) ومن هنا فإننى لا يجب أن أنسب إلى نفسى بالمدلول البشرى

ما يقوله الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن ذاته، فعندما أتصور قوة الله لا أقارنها بقوتى ، ولكنى أقول: سبحان الله، وليس كمثله شئ، وعندما أتصور انتقام الله لا أقارنه بانتقامى، وإنما أضعه تحت عبارة (سبحان الله) و(ليس كمثله شئ).

ومن هنا نجد أننا إذا تذكرنا « سبحان الله،وليس كمثله شئ » يمكن أن نصل إلى مدلول أشياء كثيرة، فأنت مثلا لا تستطيع أن تتصور إلا ما تراه، وعندما يخبرك الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن أشياءلا تراها تضعها تحت عنوان (سبحان الله) و(ليس كمثله شئ) لأنه شتان بين رؤيتك ورؤية الله ـ سبحانه وتعالى ـ مثلا: سبحان الله الذى أسرى بعبده. من الذى أسرى؟ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أسرى بنبيه إلى المسجد الأقصى، لا تأتى لى فى هذه الحالة بقوانين الزمان، وقوانين المكان التى تنطبق عليك أنت، والتى تستطيع أن تراها وتتصورها، ثم تحاول أن تطبقها على فعل من أفعال الله، لماذا؟ لأن الله ليس كمثله شئ، ومن هنا فإن هذه القوانين التى تحكمك لا تحكمه، والزمان والمكان اللذان تخضع لهما لا وجود لكليهما عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأنه ليس كمثله شئ، الذى أسرى بمحمد ﷺ هنا هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولذلك حين قال بعض الناس: أيستطيع محمد أن يذهب إلى بيت المقدس ، ويصعد إلى السماء، ويعود فى ليلة واحدة؟ نقول إن محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يدع ذلك، وإنما أسرى به، والذى أسرى به هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ والله ليس كمثله شئ، ومن هنا فإن قوانين الزمان والمكان، وقوانين الدنيا كلها، والقوة والقدرة إلى آخر كل ما يتصوره البشر لا ينطبق على الإسراء؛ لأن الله هو الفاعل ، والله ليس كمثله شئ، وإذا كان كل شئ يأتى بالتشابه، فإن الذى يأتى من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شئ؛ ولذلك عندما نقول: سبحان الله، وليس كمثله شئ فإننا نعلو به سبحانه علوا كبيرا عن كل شئ يأتى بالتشابه، إذن كل ما نطق به الله ـ سبحانه وتعالى ـ خذه على أنه له، أما عن كيفيته فلا أحد يستطيع أن يصل إليه، لماذا؟ لأنه ليس كمثله شئ.

◻◻◻

والغيب والملائكة

« عندما يحدثنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن معجزة من المعجزات التى يؤيد بها أنبياءه، أو عن عالم الجن أو الملائكة الذى لانراه، يجب أن نعرف أنها حقائق، لماذا؟ لأن ما هو فوق قدرة العقل موجود، وما هو فوق قدرة السمع موجود، وما هو فوق قدرة البصر موجود ».

الذى أسرى هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن هنا فإن قوانين الزمان والمكان،وقوانين الدنيا كلها،والقوة والقدرة لا تنطبق على الإسراء؛ لأن الله هو الفاعل، وإذا كان كل شئ يأتى بالتشابه فإن الذى يأتى من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شئ، بل هو يعلو علوا كبيرا عن كل شئ يأتى بالتشابه.

ومن هنا عندما يحدثنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن معجزة من المعجزات التى يؤيد بها أنبياءه، أو عن عالم الملائكة والجن الذى لا نراه، فنحن نعرف أن هذه حقائق لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر، وقدرته لا تقارن بالدنيا كلها، وعلمه لا يصل إلى ذرة من ذراته علم البشر جميعا، فهو يخلق ما نرى، ويخلق ما لانرى، ويخلق ما لا نراه الآن، وقد نراه فى المستقبل.

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما قلت: لطيف بعباده، ومن هنا فإنه يضع فى الكون آيات تقرب إلى العقل البشرى ذلك الذى يعجز عنه هذا العقل وتجعله قريبا من تصوره، وهو بذلك يريد أن يدخل الاطمئنان إلى قلوبنا، وأن يعطينا الإيمان واليقين بحيث نستطيع أن نجابه المضلين، وأن نرد عليهم، والإنسان المؤمن دائما فى قلبه سكينة، وفى قلبه أمل، ذلك أنه يؤمن بقدرة الله التى هى بلا حدود، ويؤمن بأن الله الذى كتب على نفسه نصر المؤمنين، وكتب على نفسه إنجاء المؤمنين، وكتب على نفسه أن يدافع عن الذين آمنوا، تلك القدرة الهائلة قادرة على حمايته، على دفع الضر عنه، ولو كانت أسباب الدنيا كلها ضده.

ولكن كما يجادل بعض الناس فى الروح يأتى واحد منهم ويقول: ما هذا

الكلام عن عالم الجن والملائكة، أنا لا أصدق إلا ما أراه، ويجادل ويجادل إلى آخر هذا الكلام، فإذا قلت له: هل شهدت الخلق؟ هل شهدت خلق الجن والملائكة؟ يرد عليك: وأنت أيضا لم تشهده، وهنا نرد عليه بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وضع لنا فى هذا الكون الدليل على أن ما فوق قدرة العقل، وما فوق قدرة البصر، ومافوق قدرة السمع موجود فى هذا العالم، منذ خلق الأرض ومن عليها، وكل هذا يخرج من علم القادر وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى علم غير القادر، وهو الإنسان، أيدل على أن ما هو فوق القدرة البشرية موجود ولكننا لانعقله، ولانسمعه، ولانراه ، ولنناقش هذه المسائل الثلاث:

ما هو فوق قدرة العقل موجود منذ الأزل، وإن كان قد أصبح فى قدرة العقل خلال السنوات الأخيرة مثلا أن يطير الإنسان فى الهواء بطائرة كانت فوق قدرة العقل فى الماضى، بحيث إنك إذا قلت منذ مائة سنة مثلا: إنك ركبت طائرة وطرت بها فى الهواء لاتهمك الناس بالجنون أو بالكفر، ولقتلوك ، ولو قلت إنك تحدثت فى آخر الدنيا فسمعك ملايين البشر فى وقت واحد، لو قلت هذا منذ مائة سنة فقط لما صدقك أحد، ذلك أن هذا كان فوق قدرة العقل البشرى، ولكنك الآن تذهب إلى أى مطار فتركب الطائرة وتطير فى الهواء، وتتحدث فى الإذاعة فتسمعك الدنيا من أقصاها إلى أقصاها، كيف حدث ذلك؟ هل اخترع الإنسان غلافا جويا جديدا للأرض يمكنه من الطيران؟ هل دار حول الدنيا ليضع موجات الأثير؟ لا، لاهذا ولا ذاك طبعا، إنما الغلاف الجوى كما هو منذ خلق الأرض ومن عليها، وموجات الأثير كما خلقها الله ـ سبحانه وتعالى ـ منذ بداية الكون، ولكن الذى حدث أن الله أدخل الانتفاع بهذه الأشياء مما هو فوق قدرة العقل البشرى إلى علم البشر، أى أن هذه الأشياء خرجت من علم القادر إلى علم غير القادر لكلمة (كن) فاستطاع الإنسان أن يطير فى الفضاء، وأن يتحدث فتسمعه الدنيا كلها إلى آخر ما حققه وسيحققه العلم بقدرة الله، وهذا دليل قاطع على أن ما فوق قدرة العقل البشرى موجود، وأن العقل البشرى ليس هو الحد الأعلى للعلم والمعرفة فى هذه الأرض، وأنه كلما تقدم الزمن أعطى الله ـ سبحانه وتعالى ـ علما

كان فوق قدرة البشر أعطاه للقدرات البشرية حتى يستطيع الإنسان أن يصل إليه، وحتى يؤمن الإنسان أن ما فوق قدرة العقل موجود، وحقيقة واقعة، وإن يكن يجهلها.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ويقول: هذا بالنسبة للعقل، أما بالنسبة لما هو فوق قدرة الأذن فذلك شئ نعرفه كل يوم، إذا جلست أنت فى حجرة مغلقة ليس فيها أى صوت وسألتك أنا: هل يوجد صوت فى هذه الحجرة؟ تقول لى: أنا لا أسمع شيئا، وكونى لا أسمع شيئا فإنه لا يوجد صوت فى هذه الحجرة، فإذا « أدرت الراديو » سمعت مئات الأصوات من جميع أنحاء الدنيا، من أين جاءت هذه الأصوات؟ هذه الأصوات تسبح فى جو الحجرة، ولكنك لا تستطيع أن تسمعها بالأذن المجردة لأنها فوق قدرة الأذن، فإذا أتيت بآلة استطاعت أن تجعل هذه الأصوات فى قدرة الأذن كان فى إمكانك أن تسمعها وتميزها، إذن فهذه الأصوات موجودة، ولكنك لاتستطيع أن تسمعها إلا إذا أتيت بآلة تجعل أذنك قادرة على أن تستمع إليها ، وربما فى المستقبل تكون هناك اختراعات أخرى بما هو فى علم الله، ولم يصل إلى العلم البشرى بعد، تستطيع أن تجعلك تسمع أصواتا لانسمعها الآن، ولا ندرى عنها شيئا، بل إننى أريد أن أزيد على هذه التجربة لمحة صغيرة، إذا أتيت بالراديو الترانزستور ووضعت سماعة الأذن الصغيرة فى أذنك، وجلسنا نحن الاثنان معا بجوار بعضنا البعض، وسألتنى هل أسمع شيئا؟ سأقول: لا، هل يوجد صوت هنا؟ سأقول لا، بينما أنت جالس إلى جوارى والسماعة فى أذنك تسمع الدنيا كلها كما تشاء، وأنا بجانبك لا أسمع شيئا، ما معنى هذا؟ معناه أن الجهاز الذى تستخدمه قد جعل الأصوات التى تسبح فى الحجرة التقطها وجعلها فى مقدرة أذنك، بينما أنا جالس إلى جوارك، وفى نفس المكان، ولكن هذه الأصوات فوق قدرة سمعى، هل معنى ذلك أن الأصوات التى تسمعها أنت بسماعة الراديو غير موجودة لأننى لا أسمعها؟ مستحيل، ولكن معناه أن هذه الأصوات التى تسمعها أنت وحدك، والتى هى فوق قدرة أذنى موجودة، ولكنى غير قادر على سماعها؛ لأننى لا أستخدم الراديو الذى تستخدمه أنت ليجعلك قادرا على السمع، نكون بذلك قد وصلنا إلى أن ما هو فوق قدرة

العقل موجود، وما هو فوق قدرة السمع موجود، ثم نأتى إلى ما هو فوق قدرة البصر.

أنت تقول: أنا لا أرى العوالم الأخرى التى يتحدث عنها الله، ومن هنا فهى غير موجودة، وأنا آتى لك بنقطة ماء من الترعة، وأقول لك: هل ترى فى هذا الماء شيئا؟ ستقول: لا، وعندما أضع الماء تحت الميكروسكوب تظهر فيه مئات الجراثيم الدقيقة الحية التى تتحرك بشكل عجيب، أقول لك انظر فى الميكريسكوب، سترى هذه الجراثيم، بل إن الإنسان المريض حينما تأخذ نقطة من دمه فإنك لا ترى فيها شيئا، فإذا وضعتها تحت الميكرسكوب، أو وضعت عليها سائلا معينا تكتشف جراثيم وأشياء عجيبة، أين كانت هذه الأشياء؟ كانت فوق قدرة بصرك، فعندما استعنت بآلة مكبرة جعلتها فى قدرة البصر ليصبح من الممكن رؤيتها، ولكن هل عدم رؤيتك لهذه الجراثيم معناه أنها غير موجودة؟ أو أن هذه الجراثيم لم تكن موجودة قبل اختراع الميكرسكوب؟ كانت موجودة قطعا، ولكنها كانت فوق قدرة البصر، وجاء اختراع الميكروسكوب ليدخلها من فوق قدرة البصر إلى القدرة البشرية، ولكنها كانت موجودة رغم أنك لا تراها.

وإذا جلست فى حجرة بها تليفزيون، هذه الحجرة ليس فيها صورة، فإذا فتحت التليفزيون أصبحت الحجرة فيها صورة، بل ورأيت وأنت جالس أمامك إنسانا يمشى فوق القمر؟ الجواب: نعم، إذا استخدمت إمكانيات الله فى الكون، ولقد استخدم العلم إمكانيات الله فى الكون فى نقل الصورة من مكان إلى آخر، فالعلم لم يخترع طبقات الجو التى تنقل الصورة، ولا يستطيع أن يخترعها، بل اكتشفها بكلمة (كن) والله هو القادر الذى كان فى علمه كل هذا، وأخرجه إلى علم اليقين، إن ما هو فوق قدرة عقلك موجود ، وإن ما هو فوق قدرة سمعك موجوده، وإن ما هو فوق قدرة بصرك موجود، حتى إذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عن قضية غيبية هى فوق قدرةالعقل، أو السمع، أوالبصر، عرف يقينا أنها موجودة، وأن ما يقوله الله ـ سبحانه وتعالى ـ حق.

إذن ما هو فوق قدرة الإنسان موجود فعلا، وموجود بفرق شاسع جدا، هو

الفـرق بين قدرة المخلوق والخـالق، والله ـ سـبحـانه وتعـالى ـ أراد ألا تكون هذه القضية الإيمانيـة ـ وهى قضية الغيب ـ ألا تكون مادة للمـضلين ليضلوا بها الناس، ويبعـدوهم عن طريق الله ، فجـعل العقل البـشرى نفـسه ينتقل بقـدرة الله مما هو مستحيل عقليا ومما هو ممكن، ليثـبت أن ما فوق قدرة العقل موجود، وجعل العقل يستطيع بقـدرة الله أن ينتقل مما هو فـوق قدراته العادية، وجـعل الغيـر يستطيع أن يرى ما لـم يكن يحلم بأنـه سيراه، وكان الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ يستطيع أن يعطى كل هذا العلم للعـقل البشـرى فى اللحظة الأولى التى خلقـه فيهـا ، ولكنه لم يرد ذلك حتى يكون الـعطاء للإنسان عطاء فيـه إثبات لقدرة الـله، وفيه إثبـات لوجود الغيب، وفـيه إثبات لما هو فوق القـدرات البشرية، وأن يكون العطاء متـجددا لكل جيل، وعطاء الله لا ينتهى ولا ينضب أبدا.

ولكن هناك بعض القضايا التى يثـيرها المضلون، مثل قضية تغيير القبلة مثلا، يقولون: إن الله ـ سبحـانه وتعالى ـ يقول: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾[1] ويقول اتجه إلى أى مكان فهناك الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ ثم إن الاتجاه إلى المسجـد الأقصى أو الاتجـاه إلى المسجـد الحرام ليـس فيـهمـا زيادة تكليف، أو زيادة فى الطاعـة،الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يفرض شيئا لزيادة طاعته، أو زيادة فى الإيمان به، ولكن الاتجاه إلى المشرق مثل الاتجاه إلى المغرب، لا يكلف المؤمن شيئا أن يتجه إلى هنا أو هناك، فلماذا تغيرت القبلة؟!.

□□□

(١) سورة البقرة : من الآية ١١٥.

ولا خطر على قلب بشر

إن الله يدافع عن الذين آمنوا، ويدافع عنهم بقدراته هو، وليس بقدراتهم هم، ومن هنا فإن الإنسان المؤمن قلبه مطمئن مهما حدث، نفسه لا تضيع مهما أظلمت الدنيا أمامه؛ لأن الله يؤيده بنصره، يؤيده بقدرة الله، وليس بقدرات البشر.

ولقد اكتشفنا في الغلاف الجوى خصائص مكنت الإنسان من الطيران فى الفضاء، ومن الوصول إلى القمر، ولا يستطيع عقل أن يدعى أن ذلك من صنع البشر؛ لأن الذى خلق الغلاف الجوى هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ والذى خلق المادة التى تصنع منها الطائرات أو الصواريخ هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ والذى أوجد النظرية التى يطير بها الإنسان أو يخرج بها من الغلاف الجوى للأرض هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يستطيع الإنسان أن يصنع شيئا من ذلك، بل هو اكتشفه، ومعنى اكتشاف الإنسان له أن هذه الخاصيات كانت موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها، المعادن التى تصنع منها الطائرات كانت موجودة فى الأرض منذ الخلق، ولكنها كانت فوق قدرة العقل البشرى، فلم يستطع أن يستخدمها، ثم أدخلها الله فى قدرة العقل البشرى ليؤكد لنا، ويقرب لنا ، أن ما هو فوق قدرة العقل موجود، وإن كنا لاندرى بوجوده، وأنه من الممكن أن يدخل فى نطاق العقل، فيصبح أمرا ممكنا للبشر، وهذا حتى لا نجادل عندما يحدثنا الله عن أنباء فى الغيب هى فوق قدرة عقولنا، ولايأتى إنسان مضل ويقول: أنا لا أصدق ما هو فوق قدرة عقلى، لأنه غير موجود، ويدعى أنه رجل علمى فى تفكيره، متقدم فى أفكاره، نقول له: إن العلم الذى تستشهد به، والتقدم الذى تتمسح فيه، كلاهما يكذبك، لأن العلم هو مثبت مؤكد أن ما هو فوق قدرة العقل موجود بما يكتشفه من قدرات فى الكون وضعها الله منذ الأزل، ولم تدخل فى نطاق العقل البشرى إلا منذ عشرات السنين، وإن التقدم يكذبك؛ لأن التقدم كل يوم يسجل لنا كشفا كان فوق قدرة العقل، ولكنه موجود.

ويمضى فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى أن الأذن تستطيع أن تسمع

ما يدور فى أقصى الدنيا، بل ما يدور فوق القمر من حديث، إذا استخدمت لها الآلات، أو الوسائل التى ترفع قدراتها إلى ذلك، فجهاز الراديو الصغير يستطيع أن يجعلك تسمع كل مايدور فى العالم، والعين تستطيع أن ترى بصرا ممدودا إلى مالا نهاية، وقد استطاعت باستخدام نظريات وقوانين الله فى الكون أن ترى ما يحدث فوق سطح القمر، وأنت جالس فى حجرة فى منزلك.

فإذا كانت الأذن تستطيع أن تسمع مايدور فى الدنيا كلها، وقد تلاشت المسافة بالنسبة له تماما، وإذا كانت العين تستطيع أن ترى ما يحدث فوق القمر وأنت جالس فى منزلك، أو مكان عملك، إذا كان هذا كله ممكنا بقدرات البشر، وبالعلم الذى أعطاه الله لبنى آدم وكرمه به، ورفعه على كل مخلوقاته، إذا كان هذا العلم اليسير القليل الذى أعطاه الله لبنى آدم، استطاع أن يجعله يسمع ما فى الدنيا كلها، ويرى ما يحدث فوق القمر، فكيف يكون الحال فى الآخرة عندما تكون القدرة لله، وليست للبشر، وعندما يكون العلم لله وليس للبشر،وعندما يعطينا الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى ليس كمثله شئ القدرات، بدلا من أن تعطيها لنا يد بشرية محدودة القدرة والقوة، ماذا سترى العين؟ وماذا ستسمع الأذن؟.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى قائلا: إن هذه نقطة لابد أن نتأمل فيها، قدرات البشر أرتنا ما فوق سطح القمر، ونحن جالسون فى بيوتنا، والذى رأى هو العين، لأن كل هذه الآلات والاختراعات البشرية لاتستطيع أن تجعل رجلا أعمى يرى، فالذى رأى هو العين التى خلقها الله، وليست الآلة التى اخترعها الإنسان، الآلة أو جهاز التليفزيون كان وسيلة فقط، ولكن العين التى خلقها الله هى التى رأت وشاهدت، ولو أن الله ذهب بنور هذه العين ما استطاعت أن ترى شيئا رغم كل إضافات البشر التى منحها الله لهم بالعلم.

أقول: إذا كانت العين استطاعت أن ترى بقدرات البشر المحدودة ما يحدث على القمر، وربما ترى غدا ما يحدث على كوكب الزهرة، إذا كان ذلك قد تم فى الدنيا، وإذا كان الفعل فى الآخرة هو من الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى ليس كمثله شئ، أفلا تستطيع أن تتصور معنى أن الجنة فيها ما لا عين رأت، عيوننا رأت فى الدنيا أشياء كثيرة، واستطاعت أن ترى بقدرة البشر أشياء تحدث على بعد مئات

الألوف من الأميـال، وربما ترى أشياء تحدث علـى بعد ملايين الأميـال، هذا بقدرة البشر، فإذا جاءت الآخرة كان ذلك بقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فترى العين مالا عين رأت، والفرق بين الرؤية هنا، والرؤية فى الآخـرة، أنها فى الدنيا بقـدرة البشر وفى الآخرة بقـدرة الله، وشتـان بين القدرتين، لامـقارنة، وبالتـالى فلامـقارنة بين مايراه الإنسان فى الدنيـا، وماسيراه فى الآخرة، الفـرق رهيب هائل، هو الفرق بين قدرة الله ـ سـبحـانه وتعالى ـ الذى ليس كـمثله شئ، وبين قـدرة البشـر، وأكرر: لامقارنة.

وما ينطبق على العين، ينطبق على الأذن، حينما يأتى الحديث الشريف ويقول: إن الإنسان سيسمع فى الجنة مالا أذن سمعت، أقول إن ذلك صحيح مائة فى المائة، وإنه سيكون هناك فرق رهيب وهائل بين ما تسمعه الأذن فى الدنيا، وما ستستطيع أن تسمعه فى الآخرة، الأذن فى الدنيا بقدرة اللـه ـ سبحانه وتعالى ـ قد استطاعت أن تسمع إنسـانا يتكلم فى آخر العـالم، بل إنسانا يتكلم فوق القـمر باسـتخدام آلة صغـيرة هى الـراديو ، وباكتـشاف قـوانين الله فى الكون وهى الأثير الذى يحـمل الصوت للدنيـا كلها، وكـما قلت عن العين أقول عـن الأذن، الأذن أيضا هى التى تسمع، كل الآلات المخترعة وسيلة، ولكنها وسيلة لا تسمع الصم، إنما الذى يسمع هو الأذن التى خلقها الله ـ سبـحانه وتعالى ـ فعندما نقول إن الآخرة سـيكون فيها ما لا أذن سمعت، تسجد لجلال هذه العبارة، ذلك أن الفارق سيكون رهيبا وهائلا، وهو الفرق بين قدرة الله خالق كل شئ، وبين قدرة البشر المخلوق، ومادام هناك لا مقـارنة بين قدرة الخالـق والمخلوق، فلامقـارنة بين ماتسمـعه الأذن فى الدنيـا، وما ستسمعه فى الآخرة.

فإذا حدثنا الله ـ سـبحانه وتعالى ـ عن الغيب، وإذا حـدثنا عن عوالـم الملائكة والجن، وإذا رجعنا إلى الحديث الشريف أنه فى الجنة سيكون هناك مالا عين رأت، ولا أذن سـمـعت، ولا خطر علـى قلب بشـر، تعلمْ أن هذا يقـين، لماذا؟ لأننا حين نأخذ ما فى أيدينا، ثم نـقارن نجد أن الفرق سيكون هائلا، وإذا كـان العلم قد تقدم ليكتـشف قـوانين الله فى الأرض واسـتطاع أن يقـدم للعين قـوة الرؤية على بعـد مـلايين الأميـال، وأن يقدم للأذن قـدرة السمع عـلى بعد مـلايين الأميـال، والعلـم

سيتقدم في الأجيال القادمة ليقدم لنا أكثر من ذلك، وأكثر، وبعد مائة أو مائتى عام، ربما استطاعت العين أن ترى مالا تراه الآن، كما استطعنا نحن مثلا أن نرى الميكروبات التى لم يكن يراها أجدادنا، وأن نرى الإنسان فوق القمر الذى لم يره الجيل الذى قبلنا، وستكون الأذن قد تقدمت لتسمع ما لا تسمعه الآن، تماما كما تقدمنا نحن لنسمع ملايين الأصوات التى لم نكن نسمعها من قبل. ولكن المهم هو أن الفرق سيبقى كما هو، وهو الفرق بين قدرة البشر، وقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذا الفرق هائل ولا وجه فيه للمقارنة، ومن هنا فإن عظمة ما قيل من أن الإنسان سيرى فى الآخرة مالم تره عين، وما لم تسمعه أذن، وما لم يخطر على قلب بشر، يزداد عمقا وإعجازا كلما تقدم العلم، لأن الفرق باق بين قدرة الله وقدرة البشر، وذلك تصديقا للآية الكريمة ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾[1].. ولذلك فكلما تقدم العلم ازددنا خشوعا وخضوعا لله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى يرينا آياته فى الآفاق، وفى أنفسنا.

ثم يقول لنا: ما أعطيته لكم من العلم هو ذرة، ولكن فى الآخرة سأمتعكم على قدر قدراتى أنا، سأجعلكم تسمعون لا بقدرة أعطيتها لبشر، ولكن بقدرتى وسأجعلكم ترون بقدرتى، وسأمتعكم بقدراتى. ولنا أن نتصور الفرق الهائل الذى سيتم على أساسه متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا، وكلما ازدادت الرفاهية، وازداد ما تقدمه المدنية من حياة مريحة ليس فيها تعب ولا نصب، فإن ذلك يزيد من قدراتنا على التصور فيما سيمتعنا الله به فى الآخرة، إن كنا من أهل الجنة، جعلنا الله وإياكم من أهلها.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فيقول: ومن هنا فإن الإنسان المؤمن حين يقدم صدقة، فهو ليس بإنسان يضيع ماله، وهو ليس بإنسان غبى، لأن هذا المال الذى أخرجه فى سبيل الله كان يستطيع أن يتمتع به وهو فى الدنيا متاعا محدودا، وبنفس قيمة المال، ولكنه لذكائه اختار أن يتمتع به متاعا بلا حدود على قدر قدرات الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى ليس كمثله شئ، واختار أن يتمتع بعشرة

---

(١) سورة فصلت: من الآية ٥٣.

أمثال قيمته أو بأكثر، لأن الحسنة بعشر أمثالها، ومن هنا فإنه عندما يخرج هذا المال يكون قد حقق به فائدة لا يمكن أن يحققها له هذا المال فى الدنيا، بل يكون قد عقد صفقة رابحة لا يمكن أن يعقدها فى الدنيا ولو كان مكسبه من هذا المال أضعافا مضاعفة، ذلك أن كل شئ يتم فى الدنيا على حسب قدرات البشر، وكل شئ فى الآخرة بقدرة الله ، والله ليس كمثله شئ.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى: إن هذه الصورة ربما تقرب لنا بعض ما ينتظر الإنسان المؤمن والمسلم، ذلك فضلا عن أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يدافع عن الذين آمنوا وهو يدافع عنهم بقدراته، وليس بقدرات البشر، ومن هنا فإن دفاع الله عن الإنسان المؤمن لايمكن أن تقف أمامه قوة فى الدنيا ، ولا يخشى أى قوة مهما بلغت؛ لأن الذى يدافع هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن هنا أيضا فإن الإنسان المؤمن قلبه مطمئن مهما حدث له، ومهما ضاعت الأسباب من يده، لماذا؟ لأنه يحس أن الله معه، والله معه بقدراته فوق الأسباب والمسببات، وليس كمثله شئ، ولايمكن لإنسان مؤمن مسلم أن تضيع نفسه حسرات أمام عقبات الدنيا مهما حدثت، وأمام أمور الدنيا مهما أظلمت، وذلك أن الذى يؤيده بنصره، والذى هو وليه، والذى يفتح له الأبواب المغلقة، ويضئ له الطريق المظلم هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفى كل أمر من الأمور هو يرد الأمر إلى الله الذى ليس كمثله شئ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يفتح له من الأبواب مالم يخطر على قلبه أو عقله، ويسبب له من الأسباب ما لم يكن يعتقد أنه سيتم.

على أن هذا كان استطراداً لابد منه قبل أن نبدأ فى الحديث عن: لماذا تغيرت القبلة، مع أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾(1).

□□□

---

(1) سورة البقرة : من الآية ١١٥ .

لماذا تغيرت القبلة

ووصفهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالسفهاء قبل أن يتكلموا، وأنبأنا عنهم قبل أن يجادلوا، وكان من الممكن أن يمتنعوا عن الكلام، ويتوقفوا عن الجدل، ولكن الله أتى ـ على يد خصوم الدين ـ بما يثبت صحة هذا الدين.

بعض الناس يقول إن ما تم بقدرة العلم هو شئ يأخذ بالعقول ويحقق أحلام الإنسان، ولقد شرحت كيف أن مقومات الحياة الأساسية كالماء والهواء، والزرع، كلها من صنع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن نعمه على عبيده، ولكننا إذا نظرنا إلى مقومات الحياة المرتقية، أو العلمية المتقدمة، نجد أنها كلها مما خلق الله للإنسان فى الأرض، وسخرها له ، فأنت تأتى إلى ميكرسكوب معقد مثلا يريك مواقع النجوم على بعد ملايين الأميال، وتسأل صانعه من أين صنعت هذا؟ فيقول لك: إننى أستورد العدسات من ألمانيا مثلا، والخشب الذى صنعت منه القاعدة من السويد، والصلب مثلا من أمريكا، فتذهب إلى ألمانيا للرجل الذى يصنع العدسة فيقول لك أنا آتى بالرمل النقى الذى يصنع منه هذه العدسة من المكان الفلانى ، أو من بلدة كذا، وتسأل الذى يأتى بالخشب، فيقول أنا آتى به من غابات السويد، فتسأل من يزرع غابات السويد فيقول لك إنها تنبت، فإذا ذهبت إلى أمريكا لتسأل عن الصلب قالوا لك إنه يأتى من باطن الأرض من بلدة كذا، والمرآة الضخمة التى تستخدم فى الميكرسكوب من مادة كذا، إلى آخره.

إذن كل هذه الآلة العلمية المعقدة التى يدعيها الإنسان لنفسه عادت إلى اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ فالرمال المستخدمة خلقها اللّه ، والخشب المستخدم أنبت غاباته اللّه، والحديد المستخدم أوجد مناجمه اللّه، وهكذا فى كل شىء فى العالم، فى العقول الإلكترونية فى مراكب الفضاء التى تذهب إلى القمر، كلها إذا أعدتها إلى مادتها الأولية، فأنت تعيدها إلى خلق اللّه فى الأرض، يوم خلق اللّه الأرض، إذن كل هذه المواد التى تستخدم فى أحدث تطورات العلم هى من خلق اللّه سبحانه

وتعـــالى فى كــونه يوم خلق الـكون، وكل الظواهر الـكونيـــه من نقل الصـــوت والصورة، والأشـعة تحت الحمـراء هى أيضا مخلوقـة منذ خلق الله الكون، بل إن الله ـ سـبحانه وتعـالي ـ أعطاها لبـعض مخلوقـاته من الحيوانـات قبل أن يعطيـها للإنسان كالثعـابين مثلا التى يستخدم بعـضها أنواعا من الأشعة لتتـحسس طريقها وتهاجم عدوها ، لم يعرفها الإنسان إلا فى العصور الحديثة.

فـالعلم مكتـشف لآيات الله فى الأرض مســتخدمـا نفس المواد الأوليـة التى خلقها الله ـ سبحانه وتعالى ـ منذ خلق الكون، ما الذى زاد خلق الكون؟ ما الذى زاد هو قدرة الإنســان على اكتـشاف خواص هذه المواد؟ هذه القـدرة التى أعطاها الله ـ سـبحـانه وتعالي ـ له مـصداقـا للآ ية الكريمة ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾(١).

على أننى أريـد أن أنبـه الى كلمـة هامـة وردت فى الآية الـكريمة ، وهى ﴿فى الآفاق﴾ لـم يقل الله ـ سبحانه وتعـالى ـ فى الأرض، وهذه الكلمة لها معان بدأت تتكشف الآن بشكل أوَّلِيٍّ وسـتتكشف فى المسـتقبل حيث سيـكشف الله للإنسان آيات فى الآفـاق لا نعرفـها نحن، وهذا من عطاء القـرآن المتجـدد، والمهم هنا أننى أريدأن ألفت النظر إلى اسـتخـدام لفظ (الآفـاق) وعدم اسـتخـدام لفظ (الأرض) حيـث إن الله ـ سبـحانه وتعـالى ـ غاية في الدقـة فى اختـيار الألفـاظ التى تطابق المعنى تماما.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ويقول: ونأتى الآن إلى مسألة تغـيير القبلة، وهى مـسألة مـثار جـدل بين بعض الناس، واسـتخـدام من المضلين يحـاولون بها أن يقـولوا أو يدعوا أن هناك نوعـا من التناقض !.. فالـله ـ سبحـانه وتعالى ـ يقول إن لله المشرق والمغرب، ويقول فأينما تولوا فثم وجه الله، ومع ذلك يأتى فـيأمـرنا بأن نتجـه إلى بيت الله الحـرام فى صلاتـنا، وإذا كان الله ـ سـبحـانه وتعالى ـ موجـودا فى كل مكان وزمان، وإذا كان التوجه إلى المشـرق،والتوجه إلى المغـرب لا يكلف المؤمن شـيـئا، فـهـو يتجـه إلى الشـرق، أو إلى الغـرب، أو إلى

---

(١) سورة فصلت : من الآية ٥٣.

الشمال، أو إلى الجنوب، وهذا لا يضيف عليه أعباء جديدة أو يحمله جهدا إضافيا، بل هو نفس الجهد، فلماذا تغيرت القبلة ؟ . .

وأنا أقول: إن في هذه الآية إعجازا، ولنذكر الآية الكريمة ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**﴾[1] وأنا أريد هنا أن أنبه إلى شيء هام هو استخدام لفظ (السين) في القرآن، ولفظ (السين) لا يستخدم إلا لشيء مستقبلي، أي سيحدث في المستقبل، لا يمكن أن أقول: سيفعل فلان كذا، ويكون هذا الشخص قد قام بالفعل الذي أعنيه، بل لابد أنه لم يقم به، وإنما ينوي القيام به أو حدد الوقت للقيام به، المهم أنه لم يتم، ولكنه قادم.

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول في كتابه العزيز لنبيه الكريم: ﴿سيقول السفهاء﴾ ومعنى سيقولون أنهم لم يقولوا، ولكنهم بعد تغيير القبلة سيقولون، وهؤلاء الذين سيقولون ليسوا بالمؤمنين، فالمؤمن يتبع تعاليم الله وقوانينه، ولكن الذين سيقولون هم أعداء الدين الذين يحاولون التشكيك فيه وصرف الناس عنه، وإذاعة الأباطيل حوله، يأتي هنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويعلن: ﴿سيقول السفهاء﴾ يعني أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يصف هؤلاء الناس قبل أن يقولوا بأنهم سفهاء، ولو أن الذين أثاروا تغيير القبلة من أعداء الإسلام، كان عندهم ذرة من التفكير، ونزلت هذه الآية الكريمة لابتعدوا تماما عن السؤال، ولما سألوا لماذا تغيرت القبلة؟ وكانوا حينئذ يملكون سلاحا أقوى لهدم هذا الدين، حيث إنهم كانوا سيقولون إن محمدا ـ عليه السلام ـ قد قال في كلام يقول إنه كان موحى به من الله، ومنزلا إليه من السماء، إن السفهاء أعداء هذا الدين سيسألون لماذا تغيرت القبلة؟ ونحن نقول إن تغيير القبلة شيء إيماني لا يهمنا ، وإنه إذا اتجه المسلمون إلى المشرق، أو إلى المغرب، فليس هذا دلالة على صحة دينهم أو بطلانه، ولذلك فإننا لم نسأل عن هذا الأمر بالذات، لأنه لايمس جوهر الدين، ولكن محمدا قال إننا سنسأل، ووصفنا بالسفهاء، وهكذا لم يسأل أحد عن تغيير القبلة، ولم يحاول أحد أن ينال

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٤٢ .

من الدين الإسلامى فى أمر تغيير القبله حتى نعرف جميعا أن ما يقوله محمد ليس موحى إليه من السماء، ولكنه كلام منه.

ولكن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أراد أن يضع إعجازا فى هذه النقطة، والإعجاز هنا أن اللّه تحدى الكفار فى أمر اختيارى يمكن أن يفعلوه، ويمكن ألا يفعلوه، وزاد على ذلك وصفهم بلفظ منفر وهو (السفهاء) فلو أنهم ابتعدوا عن هذه النقطة ولم يسألوا: ما ولى المسلمين عن قبلتهم التى كانوا عليها لكانوا بذلك قد هاجموا الدين فى نقطة إيمانية كبرى، وهى أن اللّه هو القائل ، ولذلك يجب أن يكون ما يقوله صدقا، والقرآن كلام متعبد بتلاوته، لاتبديل فيه ولا تغيير إلى يوم القيامة، أى أن محمدا لا يمكن ولايستطيع لاهو ولا أحد فى الدنيا كلها أن يغيره أو يبدل حرفا منه، ومن هنا فلو أن السفهاء لم يسألوا عن سبب تغيير القبلة، وتجنبوا هذا تماما، لكانوا بذلك قد طعنوا القرآن، وطعنوا الدين كله، ولكن اللّه قائل القرآن، يأتى على يد خصوم القرآن وخصوم محمد بما يثبت الرسالة، ويؤكد صدقها، فيقول سبحانه وتعالى :﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**﴾(1)، ويقول ذلك قبل أن ينطقوا بحرف واحد، ويأتى فعلا هؤلاء السفهاء ويسألون: ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ فيشهدون بذلك على صدق القرآن، ليس فى أمر يأتى به قائل القرآن، ولا فى أمر يأتى به من أنزل عليه القرآن وهو محمد ـ عليه السلام ـ ولكن فى أمر يأتى على يد خصوم القرآن الذين يريدون أن يهدموه، وأن يشككوا الناس فيه.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى: نأتى بعد ذلك إلى مسألة تغيير القبلة ، وهى قضية تتعلق بتسليم الإنسان لله ـ سبحانه وتعالى ـ فى أمور العبادة.

إذا أردنا أن نعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإننا يجب أن نعبده كما يريد هو أن يعبد، لا كما نريد نحن أن نعبده، بمعنى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا قال لنا إن الصلوات خمس، فإننا لا يجوز أن نقول لا، سنجعلها ثلاثا، أو أربعا، أو اثنتين ،

---

(1) سورة البقرة : من الآية ١٤٢.

لماذا؟ لأننا لسنا ندا لله ـ سبحانه وتعالى ـ ولأننا نريد أن نعبد الله بالطريقة التى حددها، لأنه أعلم منا بطريق العبادة.

على أن ذلك يقتضى وقفة قصيرة لنبسط المسألة للأذهان، هب أنك مرضت، فماذا تفعل؟ إنك تذهب إلى طبيب تثق فيه، تسأل عن الأطباء، ثم تختار الطبيب الذى أجمع الناس على أنه طبيب معروف مشهور، وتذهب إليه فيقول لك أنت مصاب بداء كذا، وعلاجك هو هذا حتى تشفى، يجب أن تأخذ هذه الأقراص، وهذه الحبوب، وتتبع هذا النظام فى الطعام إلى آخره.

أنت فى هذه الحالة واحد من ثلاثة، إما أنك تؤمن بهذا الطبيب وبعلمه، فتتبع ما يقوله وتسير على نظام العلاج الذى يضعه لك، وإذا جاءك أحد وسألك مثلا لماذا تأخذ هذا الدواء أو تتناول هذا الطعام؟ تقول: هذه أوامر الطبيب، فلا يناقشك ولا يجادلك. هذه واحدة.

الثانية: أنك تنكر علم هذا الطبيب تماما، فتأخذ ما كتبه لك وتمزقه وتفعل ما تريد، أو تفعل عكس ما يقول، أو تفعل ما تهوى نفسك.

أما الطريقة الثالثة: فهى أنك تكون أنت نفسك قد درست الطب، أو أنت أو أحد أقاربك فى علم هذا الطبيب من الناحية الطبية أو أعلم منه، ومن هنا فإنك أو ذلك الذى معك ويفهم فى الطب تناقش الطبيب، ولكن يجب أن يكون العلم هنا متساويا، وكما يقال فى الطب يقال فى جميع فروع العلوم الأخرى.

ولكننا نحن البشر نطبق هذا على الإنسان، ولا نريد أن نطبقه على عبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ تعاليم هذا الدين وتكاليفه فى (افعل ولا تفعل) هى من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنا أحد ثلاثة، إنسان مؤمن بالله وقدراته، وعلمه، أتبع ما يقول لأننى أعرف أنه أعلم منى؛ ولهذا نجد الخطاب فى القرآن دائما (يا أيها الذين آمنوا) أى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يخاطب المؤمنين فيما يتعلق بالطاعات، ولا يقول: يا أيها الكفار لا تفعلوا كذا وافعلوا كذا، الخطاب هنا للمؤمن، والمؤمن هو الذى يدرك يقينا أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدراته، ومن هنا فإنه يتبع ما قاله

الله كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليشفى، وفرق، ولا مقارنة بين علم الله وعلم البشر.

أما الثاني فإنسان كافر ـ والعياذ بالله ـ ملحد غير مؤمن، هذا يفعل ما يشاء ـ فليس بعد الكفر ذنب ـ تماما كما يمزق المريض أوامر الطبيب، ويتبع هواه، لا نقاش معه لأنه غير مؤمن، فليفعل ما يريد، وسيلقى جزاءه.

نأتى بعد ذلك إلى النوع الثالث، وهو أن يكون هناك نقاش حول قضايا الإيمان فى (افعل ولا تفعل) والنقاش يجب أن يدور بين علم متساو، وعقل متساو، وقدرة متساوية، فمن منا علمه كعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدرته كقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حتى يستطيع أن يجادل الله؟!.

قضية الإيمان

ولقد جاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه القضية فى مجال الإيمان ولم يأت بها فى الإخبار عن حقائق الكون مثلا، أو عن معجزات الخلق، وقال إذا أردت أن تعبدنى فاتجه إلى الكعبة. إن هذا لن يكلفك شيئا، ولن يضيف عليك مشقة ولكن هل آمنت بى ربا وخالقا؟ أم مازال الشك فى قلبك؟.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وضع فى هذا معجزة وتشريعا، أما المعجزة فهى قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾[1] واستخدام لفظ: «السين» هنا معناه أنه وقت نزول الآية لم يقولوا، وأن القول سيتم بعد نزول الآية والمعجزة هنا أنه وصف الكفار الذين سيسألون عن سبب تغيير القبلة بالسفهاء، قبل أن ينطقوا بسؤالهم.

ومعنى ذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحداهم فى أمر اختيارى يقع منهم، وكان من الممكن لهؤلاء الكفار ألا يسألوا عن سبب تغيير القبلة، وأن يقولوا إن هذه مسألة تتعلق بالعبادة لا دخل لنا بها، وحينئذ كانوا يكذبون القرآن، ويقول الناس: أين هم السفهاء الذين أخبر الله عنهم ـ سبحانه وتعالى ـ بأنهم سيسألون عن تغيير القبلة؟! إن أحدا لم يسأل عن ذلك، والقرآن كلام متعبد بتلاوته لا تغيير فيه ولا تبديل، وحينئذ كانوا سيلقون ظلالا من الشك على القرآن الكريم، لأنهم لم يسألوا، ولكن لأن الله هو القائل، والله هو الفاعل جاء هؤلاء الناس وسألوا رغم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفهم قبل أن يسألوا بالسفهاء، وهكذا كان خصوم الدين هم الذين جاء على يدهم ما يثبت صحة هذا الدين، وهذه هى المعجزة.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى قائلا: أما التشريع فهو يتعلق بعبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتسليم الإنسان له، ونحن إذا أردنا أن نعبد الله فإننا يجب أن نعبده كما يريد هو أن يعبد؛ لأن الله أعلم بطريق عبادته.

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٤٢.

ولنبسط المسألة إلى الأذهان، هب أنك مرضت وذهبت إلى الطبيب، وقال لك افعل كذا وكذا لتشفى، فأنت إما أن تفعل واثقا أن علم الطبيب أكبر من علمك، وإما لا تفعل مؤمنا بأن هذا الطبيب لا يعرف شيئا، وإما أنك تناقشه، وفى هذه الحالة يجب أن يكون علمك مساويا لعلم الطبيب إن لم يكن أكثر منه.

فإذا كان ذلك يتم مع البشر، فكيف مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع تعاليم هذا الدين بافعل ولا تفعل، وكل ما أمر به وما شرعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنك أحد ثلاثة: إنسان مؤمن بالله وقدراته وعلمه، أتبع ما يقول لأننى أعرف أنه أعلم منى بما فيه شفاء النفس فى الدنيا، وحسن الجزاء لها فى الآخرة، ومن هنا أتبع تعاليم القرآن، ولذلك يخاطب الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كتابه العزيز المؤمنين دائما فيقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ذلك أن المؤمن يدرك يقينا أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدراته، ومن هنا فإنه يتبع ما قاله الله، كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليحصل على الشفاء، وفرق كبير ولا مقارنة بين علم الله، وعلم البشر.

أما الثانى فإنسان كافر ـ والعياذ بالله ـ ملحد، وهذا يفعل ما يشاء، فليس بعد الكفر ذنب، تماما كما يمزق المريض أوامر الطبيب ويتبع هواه.

نأتى بعد ذلك إلى النوع الثالث، وهو أن يكون هناك نقاش حول قضايا الإيمان فى (افعل ولا تفعل) والنقاش يجب أن يدور بين علم متساو، وعقل متساو، وقدرة متساوية، فمن منا علمه كعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ؟ وقدرته كقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حتى يستطيع أن يجادل الله ؟!.

ومن هنا فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يأتى بقضية إيمانية كبرى : ﴿ **لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ** ﴾[1] الله موجود فى كل مكان﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ** ﴾[2] وتغير القبلة لا يكلف المؤمن شيئا، أى أن اتجاهه فى صلاته إلى الشرق أو الغرب، أو اليمين، أو اليسار، لا يضيف عليه تكليفا ولا يحمله أى مشقة، ولكن هنا قضية

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٤٢.

(٢) سورة البقرة : من الآية ١١٥ .

إيمانية كبرى، الاتجاه إلى الشرق لا مشقة فيه، والأتجاه إلى الغرب لامشقة فيه، إذن يستوى التوجه هنا بالنسبة للمؤمن، فقول الله اتجه إلى الشرق، مثل قوله تعالى اتجه إلى الغرب، هذه لا تحمل مشقة، وهذه لا تحمل مشقة، والمسألة هنا هى أن نعرف يقينا أننا نتبع أوامر الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما قاله، فى (افعل، لا تفعل) فهناك أشياء غيبية عنا أنبأنا بها الله فى القرآن الكريم، ولو لم ينبئنا بها لما عرفناها، ولَمَا وصل إليها الإنسان أبدا، هناك الجنة والنار، والثواب والعقاب، والحساب والآخرة، وهناك ما وعدنا الله به، وهناك أشياء فى الدنيا تحدث، وعقلنا قاصر عن أن يعرف الحكمة منها، وهذه الأشياء يجب أن نعرفها يقينا لأنها أتت عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هناك الصلاة، والزكاة، وأحكام الدين، والصوم، إلى آخر ما قرره وشرعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أحكام لعبادته وطاعته، وهذه لها حكمة كبرى قد لا أدركها أنا، لأن عقلى لا يمكن أن يكون مساويا لعقل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا تستطيع قدرتى ولا علمى أن يصلا إلى قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا علمه، وحكمته، ومن هنا فلا مقارنة، لأن الله ليس كمثله شئ، والخطر كل الخطر أن يدخل إلى قلب المؤمن ما يوسوس له، بأنه يجب أن يناقش هذه العبادات بمنطقه هو وبعقله هو، وقد أثبتنا من خلال الحديث السابق، أن ما فوق قدرة العقل موجود، وأن ما فوق قدرة الإنسان موجود، وإن لم نكن نعرف عنه شيئا، وأن الله بقدراته يكشف لكل جيل من البشر ما كان الجيل الذى سبقه عاجزا عن اكتشافه ليثبت أن ما فوق قدرة العقل، وفوق قدرة البصر، وفوق قدرة السمع موجود، ولعل ما نعيش فيه اليوم من علم يثبت ذلك، فالعلم لم يصنعه الإنسان، ولكنه اكتشف الطيران مثلا، اكتشفه الإنسان ولكنه لم يصنع الغلاف الجوى الذى يمكنه من الطيران، ولكن الذى صنع هذا الغلاف هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ودلنا على استخدامه، ولكن الغلاف الجوى كان موجودا، وقدرة طيران الإنسان حول الأرض كانت موجودة، ولكنها كانت فوق قدرة البشر، إلى أن تم اكتشاف الميكروسكوب، كذلك أن تسمع مايدور فى الدنيا بواسطة استخدام الأثير أو خواص طبقات الجو العليا، كل ذلك كان موجودا لم يخلقه الإنسان، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أدخله فى علم البشر، ليثبت أن ما فوق القدرة البشرية موجود.

هنا قضية إيمانية كبرى، بسطها الله وقربها إلينا بما وضعه فى هذه الأرض من علم أتاح للعقل البشرى اكتشافه، ولكن برغم ذلك كله ـ كما قلت ـ يأتى من يوسوس للإنسان ليقول له: لماذا تصوم مثلا؟ وماذا يفعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ بامتناعك عن الطعام والشراب، وهو غنى عن العالمين؟ بماذا سيزيد ملك الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أنت امتنعت عن الطعام والشراب، وصمت شهر رمضان؟ وما الذى سينقص إذا أفطرت؟ أو لماذا تقوم بالصلاة خمس مرات فى اليوم؟ ولماذا لا تصلى مرتين فقط؟ مرة عند استيقاظك من النوم، وأخرى عند ذهابك إلى النوم، إلى آخر هذا الكلام الذى يدخل النفوس محاولا أن يضعف الإيمان فيها، وهنا نقول إنك لا تستطيع أن تناقش هذا، ولا تعرف الحكمة فى التكليف به، لماذا؟ لأنك فى عقلك وتفكيرك لست مساويا لقدرات الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومادمت قد آمنت، ووثقت بأن الله هو الخالق، وهو الفاعل، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى خلق هذا الكون، وهو القوة الكبرى الذى ليس كمثله شئ، يعلم مالا تعلم، إذا وثقت فى هذا، ودخل الإيمان إلى قلبك، ففى هذه الحالة وجبت عليك طاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما يأمرك أن تفعل أو لا تفعل، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو أعلم منك بهذا كله، وهو يطلب منك الطاعة والتسليم، وأنت لن تصل إلى الإيمان إلا إذا استسلمت وسلمت وجهك لله، فيما يقول، فى افعل ولا تفعل، تماما كما أنك لن تشفى إلا إذا نفذت تعليمات الطبيب لعلاج مرضك، والدين رحمة وشفاء للمؤمنين، وهو يوصلهم إلى النفس المطمئنة فى الدنيا التى لا يفزعها شئ ولا يحطمها عاصفة، النفس المجزية فى الآخرة، الموعودة بجنة الله، ومن هنا كان تغيير القبلة امتحانا للإيمان، شئ ليس فيه مشقة ولا زيادة فى التكليف ولكنه قضية إيمانية كبرى، مادام الله قد قال ، فلابد أن أفعل.

ولقد جاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه القضية فى مجال الإيمان والعبادة، ولم يأت بها فى أى مجال من المجالات الأخرى، أى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد أن تكون امتحانا للإيمان فى النفس، وليس مثلا دليلا على إعجاز القرآن، أو إخبارا بشئ سيأتى، أو إظهارا لحقائق الكون، أوتحدثا عن نعم الله على عباده، أو رواية عن الأنبياء السابقين، أو وصفا للنار والجنة، والجزاء والعقاب، أو أى شئ مما

احتواه القرآن الكريم، ولكنه جاء بها كقضية إيمانية فى (افعل ولا تفعل) فقال أنت تريد أن تعبدنى، وإذا أردت أن تعبدنى فأنا أقول لك: افعل كذا وكذا، وأنا أقول لك اتجه إلى الكعبة، وهذا الاتجاه لن يكلفك شيئا، ولن يضيف عليك عبئا، ولكنه اختبار لطاعتك لى، وإيمانك بى، وهل استقر هذا الإيمان فى قلبك أم لا، وهل آمنت بى ربا وخالقا، أم لا يزال هناك شك فى قلبك. فإذا كنت قد آمنت بى ربا وخالقا إيمانا عن يقين، فإننى أقول لك: إننى وأنا الموجود فى كل مكان، أريدك أن تتجه فى صلاتك إلى الكعبة، إلى بيتى الحرام، وهذا لن يكلفك شيئا، ولكنه سيظهر مدى الإيمان فى قلبك، ومدى طاعتك لى .

وهكذا كانت قضية تغيير القبلة قضية امتحان للإيمان لنعرف من الذى يلتزم بأمر الله، ومن لا يلتزم بهذا الأمر، ويذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الحكمة فى قوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**﴾[1].

إذن فالمشكلة لا مشقة فيها، ولكنها امتحان للإيمان، وتثبيت له فى القلب ليظهر أمام المؤمنين جميعا من يتبع الرسول ، ومن ينقلب على عقبيه، من يطيع الله حقيقة، ومن يطيع الله وفى قلبه شك، وفى نفسه اهتزاز.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى قائلا: وهذا يدلك على أن كل أحداث الكون إنما هى مرسومة وموضوعة كاختبارات للإيمان فى النفس، وليكون الإنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة، والنفس البشرية فى كل دقيقة من حياتها هى فى اختبار للإيمان بالله، منذ اللحظة التى تستيقظ فيها، حتى اللحظة التى تنام، الاختبارات موجودة، والقلم يكتب، ثم ينام الإنسان فيرفع القلم، فإذا استيقظ يعود القلم مرة أخرى، ولقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ من تغيير القبلة قضية إيمانية كبرى كأساس فى الدين، ووضعها فى التكليف ولم يجعل فيها زيادة فى المشقة لتكون اختبارا خالصا للطاعة، ولمن يتبع الله ويتبع رسوله.

❑❑❑

(١) سورة البقرة : من الآية ١٤٣ .

طريق الله .. والعلم

هناك النفس المطمئنة، والنفس اللوامة، والنفس الأمارة بالسوء، وهذه النفوس كلها تواجه الحياة بطريقة مختلفة، وتنظر إلى الإيمان بشكل يجعل كلا منها يصل إلى نتائج غير التى تصل إليها الأخرى، والنفس البشرية من يوم الخلق إلى يوم القيامة، فى صراع بين الإيمان وما يوسوس لها الشيطان.

والنفس البشرية فى حياتها معرضة لأشياء كثيرة، العقل يقول شيئا، والعواطف تقول أشياء، وهوى النفس يحاول أن يجعلها تفلت من كل رقابة هى وضعت لصالح النفس البشرية.

تلك كانت مقدمة قبل أن أستكمل حديث فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى عن الله والنفس البشرية، ولقد توقفنا فى الأسبوع الماضى عند تغيير القبلة، وقال فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى: إن هناك فى الدين قضايا عقل، وقضايا إيمان، أما قضايا العقل فالله قد تركها لمنطق العقل وتدبيره.

والمطلوب من العقل أن يفكر ومطلوب منه أن يعمل، ومطلوب منه أن يكتشف آيات الله فى الكون، والمطلوب من العقل أن يفكر، ومطلوب منه أن يرسم طريق حياته الذى يتمناه، هذه فى قضايا العقل، وهو فى الزراعة مثلا يطور زراعته وأرضه، وفى الصناعة يبحث عن الخامات الجديدة، ويكتشف الآلات الحديثة إلى آخر ما يمكن أن تكون فيه قضايا العقل فيما خلقه الله له، فإذا جئنا إلى قضايا الإيمان، فتلك مسألة أخرى تماما، هنا فى قضايا الإيمان إما أن تؤمن بالله أو لا تؤمن، ليس هناك حل وسط فى أن تؤمن بالله فى أشياء، ولا تؤمن به فى أشياء أخرى، والله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا وضعت شريكا له فى شئ، تركه ولم يتقبله، لأنه غنى عن العالمين، فما أشركت فيه شيئا غير الله فليكن لمن أشركت، الله غنى ولا يتقبل الشرك.

إذن فقضية الإيمان أن تؤمن بالله أو لا تؤمن، الإيمان بالله معناه أنك قد آمنت وصدقت بأن هناك قوة كبرى منزهة عن كل شئ، قد آمنت بأن الله ـ سبحانه

وتعالى ـ ليس كمثله شئ فى علمه، وخلقه، وفضله، ورحمته، وقوته، وانتقامه، وعذابه، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شئ فى كل ما تعرف وما لا تعرف، ومن هنا فإننا لا يجب أن نقيس علمنا بعلم الله، ولا قدرتنا بقدرة الله، ولا فهمنا بفهم الله، فإذا قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ افعل، فأنا لست مؤهلا لأن أقول لماذا؟ وأن أناقش، ذلك أن المناقشة يجب أن تكون بين علم متساو، وعقل متساو، فلا نستطيع أن نقيم مناظرة علمية بين أعلم أهل الأرض، وبين إنسان لم يعرف العلم، عاش طول حياته فى مكان مهجور لا يعرف شيئا عن الدنيا، ثم يأتى هذا الإنسان الذى لا يعرف شيئا ليقف ويناقش أعلم إنسان فى الأرض، يناقشه فى العلم، لو أننا أقمنا هذه المناقشة لكنا سخرية العالم أجمع، لأنه لا وجه للمقارنة، ولاتهمنا الناس بالجنون، والسفه، والتفاهة، وقلة العقل، مع أننا هنا نستخدم الفارق فى العلم البشرى فقط، فما بالك بالفارق بين علم الإنسان، وعلم الله سبحانه وتعالى!!.

ولكن العجيب، والعجيب جدا أننا حينما نستخدم الفرق بين العلم البشرى، وعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ نجد بعض الناس يجادل ويدعى أنه مؤهل لمناقشة الله فى علمه، ولمناقشة الله فى طريق الحياة التى رسمها للبشر، ولا يخجل مثل هذا الإنسان أن يقف ويجاهر بذلك، ولا يخجل البشر الذين حوله، وهم يقولون هذا الكلام الذى يدعو إلى السخرية، ولا مقارنة بين علم الله ، وعلم البشر.

إذن الإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو تسليم لقدرات الله التى ليس فوقها قدرة، تسليم لعلم الله الذى ليس فوقه علم، وتسليم لله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى ليس كمثله شئ، هذا هو مدخل الإيمان إلى النفس البشرية، وهذا المدخل قد لا يأتى إلا بعد تفكر وتدبر فى الكون وآياته، ولكنه عندما تستكين النفس ويطمئن القلب، ويقول الله افعل كذا فنفعل، لماذا؟ لأن الذى يقول هو أعلم منى، ولأنه يحبنى، لأن الله يحب عباده، ويغفر لهم خطاياهم ويسامحهم ويتوب عليهم، الله يحبنى، ويريد هدايتى، ومن هنا فهو يفتح لى الطريق، ويبين لى آياته فى الكون، ويرينا المعجزات فى الأرض مما خلق، بل إنه يرى كل جيل منا ما كان خافيا على الجيل الذى سبقه. ومن هنا فإنه حين يقول افعل فهو يقولها لأنها طريق السعادة

لى، والراحة لنفسى وقلبى، لأنها طريق الحياة الطيبة. الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعد المؤمنين بالحياة الطيبة فى الدنيا، والحياة الطيبة هى نفس راضية مطمئنة، تخلصت من القلق، ومن الخوف، ومن الفزع، ومن كل ما يحطم النفس البشرية ويحيلها إلى جحيم، فإذا قال لى الله ـ سبحانه وتعالى ـ افعل، فهو يريد السعادة لى بهذا الفعل فى الدنيا والآخرة، لأن فعلى لن يزيد فى ملك الله شيئا وعدم فعلى لن ينقص ملك الله فى شئ، فالله حين يقول افعل يقدم لى الحياة الطيبة فيما أفعل، وحين يقول لا تفعل يقينى الحياة الشريرة بما لا أفعل، ومن هنا، ومن منطلق هذا الإيمان، وجبت الطاعة، وليس النقاش، فحين يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه افعل أو لا تفعل، إذا كنت مؤمنا فإننى أعرف أن هذا لخيرى وسعادتى، فأنطلق نحوه، وأفعله، وأنا أشعر بغبطة وفرح أننى قد استطعت أن أختار الحياة الطيبة، ليس على حسب قدراتى أنا، وفكرى أنا، ولكن حسب قدرات الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى ليس كمثله شئ، وإذا كنت غير مؤمن، بدأت أناقش وأفلسف حسب قدراتى ولن أصل إلى شئ، فأنا فى الإيمان أفعل ولا أفعل، أختار بين حياة رسمت حسب قدراتَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحياة يصورها لى عقلى. والفرق بين الاختيارين هو الإيمان. الإيمان بأن الذى وضع أسس الحياة الأولى هو أقدر منى، وأعلم منى، وهو خالقى، وهو يريد لى الخير، ويريد أن يخلصنى من الشقاء، ومن الكبد الذى يعانيه الإنسان فى الحياة، ومن هنا كان إيمانى هو أساس الطاعة، وليست قدرات عقلى، أما فى أمور الحياة العادية التى تركها الله لاختياراتى، ولم يقل افعل ولا تفعل، فهنا يأتى دور العقل فى المفاضلة والاختيار.

ومن هنا نجد الإنسان المؤمن قويا قادرا، لا تهزه شدائد الدنيا كلها، لماذا؟ لأنه يحس أنه مهما انعدمت أسباب العقل وتوقفت، فإن الله الذى رسم له طريق هذه الحياة التى يتبعها قد وعده أنه سيحييه حياة طيبة، وهو لا يمكن أن يتخلى عنه أبدًا، بل إنه سيفتح له من الأبواب، ويوجد له من الأسباب ما يجعل له مخرجا من الضيق الذى يعانيه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾[١].

---

(١) سورة الطلاق : من الآيتين ٢ ، ٣ .

وهكذا كان تغيير القبلة عملا من أعمال امتحان الإيمان فى النفس، ذلك أن الإنسان المؤمن فيما يتعلق بالعبادة يتبع تعاليم الله الذى هو أعلم وأقدر على رسم هذا الطريق، ولذلك قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ**﴾(1) وقد تحدثت فى الحلقة الماضية عن المعجزة فى هذه الآية، وقلت إن استخدام « السين » هنا معناه أن الله تحدى قوما يحاربون دينه، ووصفهم بالسفهاء، قبل أن يقولوا ما سينطقون به، وهذا ما تبينه كلمة (السين) الموجودة فى لفظ (سيقول) أى أنهم لم يقولوا، وطبعا لابد أن يتبع الفعل القول هنا، بمعنى أنه لابد أن تتغير القبلة، ثم يقولون بعد ذلك، أو يتحدثون عن تغيير القبلة. والله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفهم بالسفهاء، وكان من الممكن لكى يكذبوا هذا الدين أن يمتنعوا عن الكلام فى تغيير القبلة على أساس أنها أمر يخص العبادة، ولكن كون أنهم جاءوا وجادلوا، فكأن الله قد استخدم الذين يحاربون الدين فى إثبات صحة هذا الدين.

على أن هناك وقفة فى استخدام لفظ (السفهاء) لماذا وصفهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالسفهاء؟ ولم يستخدم لفظا آخر؟ لأن السفيه هو الإنسان الناقص العقل، غير كامل التفكير الذى يأتى بأشياء لا تتمشى مع الفكر السليم، ولقد جاء هؤلاء الملحدون والمحاربون للدين ليجادلوا فى قضية هى فوق قدرة عقولهم، وفى أمر شرعه الله لعبادته، فوضعوا أنفسهم فى مكان ذلك الذى يستطيع أن يشرع لعبادة الله، بقدرة وحكمة وعلم أكثر وأقدر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه سفاهة تفكيرهم، فى أنهم وضعوا عقولهم العاجزة فى مقارنة مع قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى أمر يختص بالعبادة والطاعة.

على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا ما يقرب إلينا ذلك الذى هو فوق قدراتنا، لنعرف أو نلمس الحكمة فيه، وهو يفعل ذلك رحمة بعقولنا ونفوسنا، فإذا قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا تأخذ مال غيرك، فليس هذا منعا لى من الحصول على مال غيرى فقط، ولكنه حماية لى من أن يحصل أى فرد فى المجتمع على مالى الخاص، أى أن الله يحمينى عندما يضع حرمة المال الخاص، يحمينى من الملايين

---

(1) سورة البقرة : من الآية ١٤٢.

التى تعيش فى الأرض، والتى يمكن أن تعتدى على مالى وتأخذه، فهذا التحريم إنما هو رحمة بى، وحماية لى من ملايين البشر الذين لا أستطيع ولن أستطيع أن أقاومهم، ويأتى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقدرته وقوته ليجعل هذا قانونا عالميا يمشى فى العالم كله رحمة للناس.

وعندما ينهانى الله عن أن أشهد الزور، أو أن أكذب، أو أن أسرق الناس فى الميزان، أو غير ذلك، فهو فى الواقع يوفر الحماية لى من كل هذا، فأنا فرد فى مجتمع لو أبيحت فيه هذه الحرمات لكنت أول ضحية فيه، ولعم الشقاء المجتمع كله، فالفرق بين حكم الغابة الذى لا يكون الإنسان فيه آمنا مطمئنا على نفسه، وبين الحكم الذى يعطى الأمان للبشر، هو فرائض الله فى (افعل ولا تفعل) وهذه الفرائض كلها لا يمكن أن تحقق أهدافها إلا إذا دخل الإيمان القلب.

على أن هناك سؤالا أخيرا يطرح نفسه هنا، وهو الكوارث التى تصيب الإنسان فى الحياة، فى حياته، وفى نفسه، وفى بيته، فى حياته حيث الخوف والقلق، وعدم الاطمئنان إلى الغد، وفى نفسه حيث الحيرة والصراع الشديد، بين ما يحققه من لذة عاجلة أو مصلحة عاجلة، أو هدف عاجل يريده، وبين ما تقتضيه تعاليم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالنسبة لهذه الأشياء، أما فى بيئته فهو ما يحدث فى الأرض من فيضانات وزلازل، وأشياء مدمرة قد تنشر البؤس والدمار فى مجموعة من البشر، وهذه الأشياء الثلاثة هى ما تبقى حول موضوع « الله والنفس البشرية». وكلها لها إجابات وإيضاحات تجعل العقل يقترب أكثر وأكثر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ...

إذا بدأنا بالنفس البشرية فهذه قصة طويلة بدأت منذ أول الخليقة وتنتهى يوم القيامة، ذلك أن الإنسان يظلم نفسه فى كثير من الأحيان ظانا أنه يقدم لها الخير، ويفعل سوءا فلا يحصل على شئ إلا الذنب، وهو فى كلتا الحالتين يحاول أن يبرز ما يفعل بأنه خير، كيف ذلك؟.

□□□

أسرار النفس البشرية

« الإنسان يريد أن يخلد فى الحياة فلا يموت، ويريد مالا لا ينتهى ولا يذهب. وهذا هو مدخل الشيطان للنفس. والله قد جعل الأجل بيده والرزق بيده ليقينا الانحراف ويبعدنا عن الإغراء الكاذب، ولكننا رغم ذلك نبحث عن الخلود، وعن المال الذى لا يزول ولا ينتهى ».

إن مدخل الشيطان إلى النفس البشرية حدده الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى القرآن الكريم بأنه ﴿ **شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ** ﴾[1] هذا هو المدخل الذى استطاع الشيطان أن يخرج به آدم وحواء من الجنة، وأن يجعلهما يعصيان الله ـ سبحانه وتعالى ـ فالإنسان يريد الخلود، إنه لا يريد الحياة أن تنتهى، يود أن يعمر ألف سنة، ومائة ألف سنة، والبحث عن الخلود يلازم النفس البشرية منذ أن بدأت حياتها على الأرض، منذ أن خلقها الله حتى الآن، الإنسان يبحث عن الخلد. وعما يبعد الموت عنه، رغم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أكد فى كتابه العزيز أنه لا مفر من الموت، فإن الإنسان يحاول أن يهرب بشتى الطرق، والأبحاث عن إطالة الحياة، وعن تجميد جسم الإنسان حتى يعالج من أمراض تسبب الموت، قد يكتشف لها دواء فى المستقبل، الأبحاث عن هذا مازالت جارية.

ولكن من ذلك الذى يكره نهاية الحياة؟ إنه الإنسان غير المؤمن، لماذا؟ لأن الموت خلق كالحياة تماما، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿ **الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾[2] أذن فالموت خلق كالحياة، ولكننا نحب الحياة، ونتمسك بها، والموت للإنسان المؤمن انتقال من حياة يتمتع فيها ويحاسب فيها على حسب قدراته هو إلى حياة يتمتع فيها ويحاسب فيها على حسب قدرات الله ـ سبحانه وتعالى ـ والإنسان فى بحثه عن الخلود هو مستعد أن يفعل كل شئ، وأى شئ.

---

(١) سورة طه : من الآية ١٢٠.

(٢) سورة الملك : من الآية ٢ .

والمدخل الثانى بعد الخلود، هو ملك لا يبلى، أى مال لا ينتهى، فالإنسان يريد حياة لا تنتهى ومالا لا ينتهى. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل الاثنين بيده، ليقى الإنسان من دخول الشيطان إلى نفسه، فجعل لكل أجل كتابا، وجعل الرزق بيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بغير حساب، ومن الذى يستطيع أن يحاسب الله ـ جل جلاله ـ وهو العزيز القدير؟!.

إذًا الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد أن يقى الإنسان الانحراف فى الحياة، ومن الابتعاد عن الحياة السعيدة إلى حياة الشقاء، فرسم له الطريق، ووضع له منهج الحياة التى هو خالقها، وهو الأعلم بها، وقال فى كتابه العزيز: ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾[1] وقال: ﴿ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (32)** ﴾[2].

وبعد أن رسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أسس الحياة وسبلها، ووضع منهجا لها، قال لنا إن الشيطان سيحاول أن يغريكم بالمال، وبالخلود، وأنا أقول لكم سلفا حتى لا يكون لكم حجة: إن لكل منكم أجلا، فإذا جاء أجلكم لا تستقدمون ساعة ولا تستأخرون، وأقول لكم إن الشيطان سيعدكم بمال لا يفنى ولا يذهب ولا ينتهى، وأنا أقول لكم ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾[3] وإننى أرزق من أشاء بغير حساب، حتى لا تكون لكم حجة فى اتباع الشيطان.

وبالرغم من هذا فإن الشيطان يجد المدخل بسهولة إلى النفس البشرية، وكلما تقدم الزمن، وتقدم العلم، وتقدمت الرفاهية التى يستطيع أن يضعها فى حياة الإنسان، انفتح فى النفس البشرية مدخل أوسع للشيطان، ذلك أن المال يستطيع أن يحقق مالم يكن من الممكن تحقيقه فى الماضى. الإنسان يستطيع الآن أن يمتلك سيارة وطائرة، وتكييف هواء، وأن يقدم له المال حياة سهلة، ويجعله سيدا مطاعا، ومن هنا كلما اتسعت دائرة الرفاهية التى يستطيع المال أن يحققها فى حياة الإنسان

---

(١) سورة النحل : من الآية ٩٧.

(٢) سورة فصلت : الآيتان ٣١ ـ ٣٢ .

(٣) سورة الذاريات : الآية ٢٢ .

زاد نهم الإنسان للمال. ولقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل للاستمتاع البشرى حدودا ليفهم الناس أن كثرة المال لا قيمة لها فى حياة البشر، فجعل المرض فى كثرة الطعام، وجعل الداء فى الطعام الفاخر الدسم، وجعل العجز فى عدم الحركة الذى توفره الرفاهية، وجعل قدرات الجسم تتلاشى فى الإسراف فى الاستمتاع البشرى أيا كان نوعه، ووضع سر الصحة فى الأشياء التى لا تكلف الإنسان مالا كثيرا، فقليل الطعام غير الدسم، وغير الفاخر، أساس اعتدال الصحة، والمشى على القدمين الذى يستطيعه الغنى والفقير على حد سواء، ودون أى مشقة أو تكلفة، هو الطريق الوحيد الآن لعلاج معظم الأمراض بما فيه أمراض القلب، والطبيب ينصح أولئك الذين لا يتحركون إلا خطوات قليلة لأن المال يرفع عنهم المشقة بالمصعد والسيارات الفاخرة، والخدم، والحشم الذين يوصلون إليهم كل شئ وهم جالسون فى أماكنهم لا يتحركون، ينصح هؤلاء بأن يسيروا ساعة أو ساعتين كل يوم؛ لأن هذا هو أساس الصحة، والهواء الطلق الذى يوجد فى الأماكن الخلوية البعيدة هو الهواء النقى غير الملوث لم تفسده يد الإنسان، وهكذا كانت الصحة فى قلة الطعام غير الدسم، وفى المشى خصوصا فى الأماكن ذات الهواء الطلق، وفى عدم الاسراف فى أى شئ، وهذا متاح للبشر جميعا، غنيهم وفقيرهم، بل إن حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى أنه ما من نبى إلا ورعى الغنم، ترينا فى أحد جوانبها قواعد الصحة التى يدفع بعض الناس الآن عشرات الألوف من الجنيهات ليصلوا إليها، وراعى الغنم لابد أن يسير على قدميه فترة طويلة فى هواء نقى غير ملوث، وهو لا يستطيع أن يحيط نفسه بأولئك الذين يعدون له الطعام الفاخر الدسم، ومن هنا فهو يبقى صحيحا سليما معافى، حتى يأتى أجله.

وبالرغم من هذا يبقى الطمع البشرى بلا حدود، بل إن الذى يملك مالا لايستطيع أن ينفقه فيما بقى من عمره، لا يكتفى بذلك، وإنما يريد أكثر وأكثر، والنفس إذا هويت المال بدأت المفسدة، فأنا أسرق لأحصل على المال، وأشهد الزور لأنال بعض المال، وأقول غير الحق، وأعمل بغير ما يرضى الله، وأخدع، وأغش، وآكل حقوق الناس، كل ذلك لأحقق لنفسى ما وعدنى الشيطان به كذبا، وهو

ملك لا يبلى، أى مال لا ينتهى ولا يفنى مهما مر الزمن، مع أننى لو كنت مؤمنا عن يقين لعلمت أننى لن أصل بعملى إلا إلى الرزق الذى قسمه الله لى، ولآمنت أن الله يرزق من يشاء، وأننى لو اتجهت إليه لأعطانى الرزق، ومنحه لى ، الرزق الحرام لو صبرت عليه قليلا وعملت لأوصلنى الله إلى المال الحلال، لأنه مقسوم لى.

ومن هنا فإننى أظلم نفسى حين أرتكب السوء، وأنطلق متبعا هوى النفس، ذلك أننى فى الحقيقة لا أصل إلى شئ إلا الذنب، ولا أكسب شيئا إلا الخطيئة، على أن هناك من يرتكب من السيئات مقابل الحصول على متعة عاجلة، ومن يظلم نفسه، والمعنى هنا ليس واحدا، الكلمة ليست مرادفة، بل إن الفرق كبير بين المعنيين.

❑❑❑

عندما يظلم الإنسان نفسه

الإنسان الذى يرتكب المعصية يفعل ذلك لأنه ضعيف، يريد الحصول على منفعة عاجلة، أما ذلك الذى يظلم نفسه فإنه يرتكب المعصية، لمجرد المعصية، فالإنسان الذى يمنع الخير عن الناس حسدا، والذى يهدم أسرة أو يفرق بين الأب وابنه وبين الزوج وزوجه ظلم نفسه بارتكاب الإثم بلا هدف إلا الأذى.

إن النفس البشرية لا ترضيها الحياة المادية وحدها، ولا يسعدها المال فقط، بل هى مزيج من الروح والمادة، ومن هنا فإن أكثر الأمم تقدما فى الحياة المادية أعلاها فى نسبة الانتحار، بينما كان يجب أن يكون العكس صحيحا، إذا كان التمتع البشرى هو قمة السعادة للنفس، فقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يضع للتمتع البشرى حدودا، حتى يقيد الطمع البشرى، فالطعام لذة، ولكن كثرة الطعام تصيب الجسم بالأمراض والعلل، والشراب لذة، ولكن الإفراط فيه يؤدى إلى أمراض قاتلة، وكذلك كل ما تهواه النفس إذا سارت على الحدود التى أباحها الله، حصلت عليه جميلا مبهجا، وابتعدت عن أضراره ومفاسده، وإذا أطلقت لهواها كل ما تريده فستتمتع أياما، ثم تقاسى بقية العمر، ويملؤها الندم.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى: إن هناك من يرتكب السوء، ومن يظلم نفسه، وبعض الناس يظن أن استخدام اللفظين فى القرآن الكريم(ظلم النفس، وارتكاب السوء) متلازمان فى المعنى، فإن من يرتكب سوءا ومعاصى، إنما يقود نفسه إلى الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة، ولكن الذى يرتكب السوء يفعل شيئا، والذى يظلم نفسه يفعل شيئا آخر.

الذى يرتكب السوء يرتكب المعاصى لفائدة عاجلة، تزين له نفسه أنه سيحصل بها على شئ، فالذى يسرق مالا مثلا يريد فائدة عاجلة بأن يتمتع بإنفاقه، والذى يأخذ حقوق غيره إنما يحصل على فائدة عاجلة يأخذ ما لا جهد له فيه، ولا حق له فيه، والذى يقوم بمعصية إنما يحصل على لذة عاجلة تنتهى بسرعة، ويبقى الذنب.

ولكن الذى يظلم نفسه إنسان آخر تماما، إنه لا يفعل ذلك للحصول على فائدة عاجلة، ولكنه يرتكب المعصية دون أن يستفيد، فالإنسان الذى يشهد زورا مثلا ليضر إنسانا آخر قد ظلم نفسه، ارتكب إثما، ولم يتمتع بشئ، والإنسان الذى يمنع الخير عن الناس لمجرد منع الخير حسدا أو حقدا، إنسان ظلم نفسه، ذلك أنه لم يعطها شيئا، وإنما أعطاها الذنب، والإنسان الذى يحاول أن يفرق بين المرء وزوجه، وبين الابن وأبيه، وأن يهدم أسرة، أويهدم عملا ناجحا، دون أن يستفيد هو شيئا، إنسان ظلم نفسه؛ لأنه أعطاها المعصية، ولم يعطها شيئا، وهذه هى النفس الأمارة بالسوء، أى أنها تجد لذة حياتها فى السوء الذى يصيب الآخرين، تجد لذة لحياتها فى أن تهدم بيتا سعيدا، أو تمنع رزقا عن إنسان، أو تضيع حقا على صاحبه، أو تقدم شهادة زور تضع بها إنسانا فى ضرر بالغ، وهى تفعل ذلك ليس بدافع الفائدة الشخصية، ولا الضعف البشرى، ولا الحصول على شئ من متاع الدنيا، ولا كل ما يقتتل عليه البشر من تفاهات الحياة المادية، كل هذا لا تحصل عليه، ولكنها تحصل على السيئات وحدها، وهذه النفس تورد صاحبها التهلكة دون أن تعطيه شيئا، وصاحبها يكون فى داخل نفسه قلقا، حائرا، لا ينام الليل، كالنار يأكل بعضها بعضا، قد يكون فى قمة الغنى، وقد يكون ليس محتاجا لشئ، أعطاه الله من خيرات الدنيا ما يعجز عن إنفاقه بقية عمره، ولكنه مع ذلك يظلم نفسه فى أنه يفسد فى الأرض، وينشر السوء، ويندفع إلى ما فيه ظلم البشر، دون أى هدف إلا السوء نفسه، وهذه النفس لا توجد فى إنسان فى قلبه إيمان، ذلك أن الإيمان يدخل فى القلب الرحمة، ويدخل فيه الخوف من الله، ويدخل فيه خشية يوم القيامة، ويدخل فيه أن الله يسمع ويرى، إذا كانت هناك ذرة من الإيمان فى النفس فإن هذه المعانى توجد فيها، أما النفس الأمارة بالسوء فليس فيها رحمة، ولا فى القلب خشية، وليس هناك خوف من يوم الحساب، ولا هناك إحساس بأن الله يسمع ويرى، ومن هنا فإن هذه النفس البشرية لا يكون فيها ذرة من إيمان، وهى لا تحس بجمال هذا الكون، ولا تتمتع بالحياة رغم ما قد يحيط بها من مظاهر النعيم الدنيوى، ذلك أنها تعيش فى شقاء داخل النفس، وضعة عدم الإيمان، وفى شقاء خارج النفس من أن كل من يحيط بها يجب أن يكون شقيا، وأن يناله الأذى، ومن

هنا فإننا عندما نقول إن هذا الإنسان قد ارتكب إثما، وتقول إن هذا الإنسان قد ظلم نفسه، لا نعنى نفس الشئ، الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وضح لنا معنى ظلم النفس، ومعنى ارتكاب الإثم، وبين لنا الفرق بين الاثنين، والإعجاز فى القرآن أن كل لفظ له معنى دقيق يعبر عنه، ولا يخرج التعبير عن هذا المعنى.

وهناك النفس اللوامة: تلك التى تلوم صاحبها على الإثم، وتدفعه إلى الخير، وتجعله يحاسب نفسه، وهذه النفس هى التى يختلط فيها عمل الخير، والإثم، هذه النفس فى كثير من الأحيان تصل إلى الهدى، أو إلى النفس المطمئنة التى وعد الله بها المؤمنين، وهى تحث صاحبها دائما على فعل الخير، ولكن صاحبها إنسان ضعيف، يأخذه الهوى مرة، فيرتكب إثما، ويندم عليه، فيتجه إلى عمل صالح، ثم يغلبه هواه، وهكذا يظل فى صراع حتى ينتصر أحدهما على الآخر.

نأتى بعد ذلك إلى النفس المطمئنة، تلك التى أعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة، والنفس المطمئنة هى نفس اطمأنت إلى قول الله وعدله، اطمأنت إلى قدرته وقوته، اطمأنت إلى علمه ووجوده.

النفس المطمئنة إلى قول الله وعدله تعرف يقينا أن ما وعدها الله به سيتحقق، وهى تعلم يقينا إن قول الله هو الحقيقة الخالدة، ومن هنا فهى تعلم أن الله يدافع عن الذين آمنوا، وإن الله وعد فى كتابه العزيز هذه النفس بالحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة، وقال فيها: ﴿ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)** ﴾[1] وهى فى اطمئنانها هذا لا تخشى شيئا، ذلك أنها تعرف أنها اختارت الطريق الصحيح، فإذا منع الله عنها شيئا تهواه، أو شيئا تريده، فلأنه يريد أن يعطيها خيرا منه، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى منعه هذا الشئ، رغم ما يحيط به من بريق الدنيا، هو أعلم منا جميعا بالخير والشر، ومن هنا فإن كان قد منع خيرا نعرفه، فإنه يريد أن يعطينا خيرا أكثر منه لا نعرفه، وإذا منع عنا شيئا نريده، فلأنه يريد أن يعطينا شيئا أحسن منه، لا تصل إليه إرادتنا وعلمنا فى هذه اللحظة، فقضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير

---

(١) سورة فصلت : الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

دائما، خير فى المنع، وخير فى العطاء، خير فى التيسير، وخير فى عدم تيسير الأمور، خير فى كل ما يأتى به؛ لأن الخيرة فيما اختاره الله، ولأن النفس لا تستطيع أن تخترق حجب الغد لتعلم الخير والشر، وتستطيع أن تصل إلى الحكمة من كل شئ يحدث، والإنسان فى تعقله فى كثير من الأحيان يرى الشر خيرا، ويحسب السوء منفعة، ولكن الأحداث عندما تتضح، والزمن عندما يمر يرينا الله الحكمة فيما منع، والحكمة فيما أعطى، والنفس المطمئنة لقضاء الله تعلم أن الله ولى الذين آمنوا، وأن الله يحب عباده المؤمنين ويدافع عنهم، وأن الله فى قضائه مع النفس المؤمنة إنما يريد أن يمنع عنها شرا لا تراه، أو يعطيها خيرا أكثر من الذى تمنته، وفى الحالتين فإن قضاء الله هو الخير.

وهذه النفس تطمئن إلى عدل الله، فهى تعلم أنه لا يوجد ظالم يستطيع أن يفلت من عقاب الله، ولا يوجد قوى متجبر هو فوق قدرة الله وقوته، ومن هنا فهى تلجأ للأقوى الذى تعرفه، وليس للضعيف الذى يبدو أمامها قويا، ولا لمن أعطاه الله فظلم الناس بما أعطاه الله له، إنها تتجه إلى المنعم الحقيقى، وليس إلى حامل النعمة، وتلجأ إلى العادل الحقيقى، وليس إلى الإنسان الذى يتبع هواه، والعدل صفة من صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يصل إليها البشر ولا يستطيعون مهما دققوا وبحثوا أن يصلوا إلى العدل الحقيقى. ولكن قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ هى التى تستطيع، ومن هنا فمهما كان الظلم قاسيا فهى تثق أن عدل الله أكبر، وأن عدل الله موجود.

والنفس المطمئنة تثق فى قدرة الله وقوته، ومن هنا فإنها لا يهمها ما يعطى البشر، وما يمنعون من ظاهر الحياة الدنيا، ذلك أنها تعرف جيدا أن الله قادر على أن يعطيها إذا سألت، وأن الله قريب يسمعها، وأن الله قوى يستطيع أن ينتقم لها، وهى فى هذا كله تحس بالاطمئنان يملؤها مهما كان الظلام حولها، لا تؤرقها الدنيا أبدا، ولا تهزها الأحداث مهما جرت، بل ينزل الاطمئنان إليها إيمانا ويقينا بأن الغد يحمل مما فى قدرة الله ما سيزيح وينهى كل ظلم وقع، وكل إجحاف تم، وهى فى هذا مطمئنة إلى أن الحق يهزم الباطل، والخير يهزم الشر، والظلم ليس له أقدام، وسرعان ما يزول.

قدرة الله

« لقد جعل الله الكون فى خدمتك، ولكنه جعله كذلك لتضيف أنت إلى الحياة شيئا، وإذا كانت المسألة أن تترك كل شئ لله ولا تعمل، فلست أدرى لماذا يتخلى هؤلاء الناس عن مبدئهم فى أبسط الأشياء وهى الطعام والشراب، فإذا عطشوا قاموا ليشربوا، وإذا جاعوا قاموا ليأكلوا، فلماذا لا يترك هذا لقدر الله؟ ».

وإذا كانت النفس البشرية لغزا فإن هناك على الأقل ثلاثة أنواع من النفس البشرية يمكن تحديد إطارها بشكل مبدئى. النوع الأول هو النفس الأمارة بالسوء، وصاحب هذه النفس يقودها إلى الهلاك، أو إلى العذاب دون أن تستفيد شيئا، هذه النفس تتمثل فى أولئك الذين يفعلون الإثم لمجرد الإثم، ودون الحصول حتى على متاع الدنيا الوقتى، والأمثلة أمامنا كثيرة، ذلك الذى يرسل شكوى كيدية فى زميل له، وهو يعرف أنها غير صحيحة، وذلك الذى يشهد زورا أو يقول كذبا ليمنع خيرا عن إنسان، وذلك الذى ينقل الأقوال الكاذبة ليوقع بين البشر، وذلك الذى يعد تقريرا مليئا بالأكاذيب ليقدمه ضد إنسان غيره، وذلك الذى يحاول أن يشوه أى عمل يقوم به أى إنسان لمجرد أن يهدمه، صاحب هذه النفس الذى يقوم بهذا لا يستفيد شيئا، فهو لا يمنع الخير ليأخذه، ولا يوقف ترقية زميل له لأنه سيرقى، ولا يرسل شكوى كيدية لينصر حقا، أو ليحقق فضيلة، وإنما هو فى ذلك كله يحاول أن يكون مناعا للخير، دون أن يستفيد شيئا.

والنفس الثانية هى النفس اللوامة، التى تلوم صاحبها على الإثم، وتدفعه إلى الخير، وتجعله يحاسب نفسه، هذه النفس يختلط فيها الخير والإثم، وتتغلب فيها الطاعة مرة، والمعصية مرة، وهى فى صراع دائم بين ما يجب أن تفعله، وما يجب ألا تفعله، وهذا الصراع يظل موجودا حتى ينتصر أحد جانبى النفس على الجانب الآخر.

ولقد توقفنا فى الحديث مع فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى عن « الله

والنفس البشرية » عند النفس المطمئنة، تلك التى أعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة، واطمأنت إلى قوله وعدله، وقوته وقدرته، وعلمه ووجوده، اطمأنت إلى أن الله حق، وأن الآخرة حق، وأن الدنيا حق، فعملت لكل منها، واطمأنت إلى أن الله ينصرها لأنها اختارت الطريق الصحيح، واطمأنت إلى قضاء الله، ما أعطاها خير، وما منعه عنها فلأنه يريد أن يعطيها ما هو أحسن منه، قضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير فى المنع. وخير فى العطاء، وهى تؤمن أن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأنه يحب عباده المؤمنين، وأنه رحيم فى قضائه مع النفس المؤمنة، وهى تؤمن أنه لا يوجد ظالم أقوى من عدل الله، ولا جبار يعلو على قدرة الله، ولا مفسد فى الأرض يفلت من عقاب الله، ومن هنا فهى تعلم حين ترى الظلم أن العدل قادم، وحين تحس بالجبروت أنها بداية النهاية، حين ترى المفسدين فى الأرض تعلم أن قضاء الله قريب.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى: إن النفس المطمئنة تثق فى قدرة الله وقوته، ومن هنا فهى تحس بالاطمئنان يملؤها مهما كان الظلام حولها، وهى تؤمن أن الغد يحمل ما سيزيح ظلما وقع، وينهى إجحافا تم، وهى فى هذا مطمئنة أن الحق يهزم الباطل، والخير يهزم الشر، وأنه ما من معركة بين حق وظلم استمرت طويلا، فالظلم ليس له أقدام يقف عليها.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى: ولكننا فى كثير من الأحيان ننظر إلى الأشياء بمنظار آخر، فنحن نرى فى بعض ما يحدث إجحافا، ونحن نريد أن نصل إلى ما نحققه دون أن نعمل، ودون أن نمتحن، مع أن الجمال فى الحياة هو أن تأخذ ناتج عملك، فلو أن الطالب الذى لا يذاكر والطالب الذى لا ينظر فى كتاب طوال العام نجح، لانعدم الجمال فى الحياة، وانعدمت معه قيمة العمل، ولو أن الإنسان الذى يعمل فى زراعة حقله، ويتعب ويشقى طوال العام، يصل إلى نفس المحصول الذى يصل إليه من لم يذهب إلى أرضه مرة واحدة لانعدم الجمال فى الدنيا، ولانعدم العمل.

وفى هذا الكون، هناك أشياء تفعل لك، وهناك أشياء تفعل بك، فالشئ الذى

يفعل لك فى الكون يستوى فيه الناس جميعا، كافر ومسلم، يستوى فيه الناس كل الناس، هذه الأشياء هى: كالشمس مثلا، الشمس تشرق كل صباح ولا تخص بنورها كافرا أو مسلما، أو شاكرا لله، أو جاحدا بنعمه، كلهم سواء، عطاء الشمس للجميع سواء، وهى لا تفرق بين شخص وشخص، والهواء مثلا تتنفسه كل الكائنات الحية دون أى تمييز. والماء مثلا يشرب منه كل كائن حى بصرف النظر عن دينه وعقيدته وإيمانه بالله أو كفره، هذه الأشياء تفعل لك كثيرا، الشمس تعطينا النور والطاقة وأسباب الحياة إلى آخر ذلك، والهواء يعطينا أسباب الاستمرار فى الحياة، والماء يعطينا الحياة نفسها، ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾[1] فهذه الأشياء تفعل لك، وتفعل لك بلا تمييز، أى أنها لا تميز فى عطائها بين عاص وعابد، ومؤمن وكافر.

نأتى بعد ذلك إلى الأشياء التى تفعل بك، وارتقاء الإنسان فى الكون يتم فيما ينفعل بك لا فيما يفعل لك، إن ما ينفعل بك إن فعلت فيه ينفعل، إذا حرثت الأرض حرثا جيدا ثم وضعت فيها البذرة ثم واظبت على رعايتها تعطيك ثمرا جيدا، وإن بحثت عن المعادن الصالحة لحياة الإنسان فى باطن الأرض، تعطيك معادنها، ولو لم تفعل لن تنفعل معك، فالذين يعملون ويجدون فى الأشياء تنفعل معهم.

والذين لا يقومون بأى جهد مع الأشياء التى تنفعل للإنسان فى الأرض لا يتقدمون، ويظلون متأخرين، وهنا يحدث الخلاف بين ارتقاء عدد من الناس، وتخلف عدد منهم، يحدث هذا الخلاف فى التعامل مع الأشياء الموجودة فى الكون التى تنفعل بك، ولا دخل للدين فى هذه المسألة، فالأشياء التى تنفعل لك، كالشمس والهواء والماء، وما فى الأرض، لا تفرق فى عطائها بين مؤمن وكافر وملحد، والأشياء التى تنفعل بك، والتى يجب أن تقدم لها عملا لتحصل على النتيجة، هذه الأشياء أيضا لا تفرق بين مسلم وكافر ومؤمن وملحد، فالكافر الذى يحسن حرث أرضه ويرويها، يحصل على أجود أنواع البذرة، والذى يتعهد الزرع يجنى محصولا وفيرا، والمؤمن الذى يهمل الأرض ولا يزرعها ولا ينفعل معها لا

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٣٠ .

تعطيه الثمرة؛ لأنه لا يطبق قوانين الكون، ولا يعمل لينفعل مع الأشياء التى تنفعل به فى الدنيا، والملحد أو الكافر الذى يستخدم أحدث الأساليب العلمية، ويجد ويسعى ليكشف عن المعادن فى باطن الأرض، تظهر له هذه المعادن، لأنها تنفعل به، والمؤمن الذى يترك المعدن فى باطن الأرض، ولا يبحث عنه، لا ينفعل به، ولا يخرج له.

تلك حقيقة كونية يجب أن نعيها جيدا.

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها، ليجذب الإنسان إلى العمل، فما هى الزينة فى حقيقتها؟ هى ما يخلع على ذاتيات الأشياء ليجعلها أكثر جاذبية، فالمرأة مثلا تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل، وزينة الأرض هى أن تصبح أكثر جاذبية للإنسان ليعمل، فالإنسان حين يرى حديقة جميلة، أو عمارة فخمة، يتمنى أن يبنى أو يعمل مثلها، فتكون هذه الزينة حافزا له للعمل، فكأن الله قد جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبنى إليها، ثم بعد ذلك هل تكون هذه الزينة هى الغاية، أم لا تكون؟ وهنا الابتلاء، ويقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾[1] معنى استعمركم، أي: طلب منكم عمارتها، وذلك لا يتأتى إلا بأمرين، أن تبقى الصالح على صلاحه، لا تفسده، وأن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه، وأقل ما تأمر به هذه الآية هو أنك لا تأتى للصالح وتفسده، معنى استعمر الأرض، أى أبقى الصالح على صلاحه، أو زاد فى إصلاحه.

والله يخاطب الشئ بالقوة والشئ بالفعل، زينة الله على الأرض من أثرين، آثار خلق الله والطبيعة التى وهبها لنا، وآثار ما فعله الإنسان بما علمه الله له، ليضيف إلى ذلك، وعندما نقرأ فى سورة الكهف ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)** ﴾[2] ومعنى ذلك أننا أعطيناه أسباب المنعة والقوة والحكم فى الأرض، ولكنه لم يقتصر على ما أوتى، لم يقتصر على ما فعل له، اتبع هو سببا، فيما ينفعل له، ولقد أورد الله هذه الآية الكريمة ليقول لنا: إن الإنسان مهما يعط

---

(١) سورة هود : من الآية ٦١ .

(٢) سورة الكهف : الآيات ٨٣ ـ ٨٥ .

فلا يجب أن يكتفى بما أعطى له، ولا يفعل شيئا بل يجب أن يأخذ هذا العطاء، ويعمل من أجل أن يضيف إليه، وينفعل به مع العناصر التى خلقها الله لتنفعل بعمل الإنسان فى الأرض، وذلك مصداقا للحديث الشريف: لا خير فيمن لا يضيف. والإضافة هنا بمعناها العام، أى أنه أنت إن استفدت من الكون وجعل الله الكون فى خدمتك، فلابد أن تعطى عطاء للكون تضيف إليه شيئا، وإلا أصبحت الحياة جامدة وغير متحركة، ولا متطورة، وتوقف تطور البشرية ونموها، إذ أن الحياة تتطور من أن يضيف الإنسان من ذاته ما تفاعل به مع بيئته ومع الكون، ليصنع شيئا جديدا، أى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينهانا أن نقف أمام قطعة من الأرض، ولا نفعل شيئا ننتظر المطر ثم يظهر النبات أى نبات، فنأكل منه، أوترعى منه الماشية، ثم بعد ذلك لا شئ، لابد أن يعرف الإنسان ويدرس كيف يحرث هذه الأرض، وما هى النباتات الصالحة لها ليحصل على أجود النتائج، لابد أن يتعلم كيف يجعل هذه العناصر التى خلقها الله فى الأرض لتنفعل به، وتعطيه أحسن النتائج، وهذا معنى الآية الكريمة﴿ **فَأَتْبَعَ سَبَبًا**﴾[1] أى أنه لم يقف ولم يقتصر على العطاء الذى أعطى له من الله.

والذى يجب أن نعرفه أن منازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة، فقد يكون رجل ذو جاه ومال فى الدنيا، أخذ من نعم الأرض الكثير، ومع ذلك مصيره النار ، وقد يكون رجل ليس له حظ فى الدنيا، رزقه يكاد يكفى قوته، هو من أهل الجنة، تلك حياة، وتلك حياة، بل إن المترفين فى نعيم الدنيا هم عادة أكثر بعدا عن الله من غيرهم، ولذلك ضرب الله عدة أمثال فى القرآن، ولكن هذا لا يجب أن يلهينا عن الحقيقة، وهى أن من يتبع القوانين التى وضعها الله فى الأرض، بالنسبة للحياة الدنيا يأخذ نصيبه منها، ومن يتبع قوانين الله بالنسبة للحياة الآخرة يأخذ نصيبه منها.

وكما أوضحت، فإن الله قد أمرنا أن نضيف من الأسباب التى أعطاها لنا فى سبيل الرزق عملا لنحصل على أحسن النتائج، وهذا العمل هو نوع من العبادة

---

(١) سورة الكهف : الآية ٨٥ .

لأننا نطيع قوانين الله فى الأرض، وهو أعطانا أسباب الرفعة فى الدنيا، وفى الآخرة، وعلينا أن نأخذ بهذه الأسباب، ونعمل من أجل الدنيا ومن أجل الآخرة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[1] فإذا كان هناك تخلف فى الدول الإسلامية، فالإسلام نفسه برئ من هذا التخلف؛ لأنه وضع أمامنا كل أسباب الرقى والتقدم، وطلب منا العمل فى الحياة الدنيا، حتى يتحقق لنا ثمرة هذا العمل، فإذا كنا قد تركنا أسباب التقدم التى هى موجودة فى الإسلام فليس هذا عيب الإسلام، وإنما العيب فى عدم تطبيق تعاليم الإسلام.

وإننى أعجب من بعض الناس الذين يفسرون التوكل على الله بأنه دعوة إلى عدم العمل والجهاد، بينما هو فى الحقيقة دعوة للجهاد والعمل، والتأكد من أن النتيجة طيبة، لأن الله يبارك هذا العمل ويبارك هذا الجهاد الصادر من قلب المؤمن، ولكن بعض الناس يريدون أن يضعوا فى الدين ما ليس فيه، وإذا كانت المسألة هى أن نترك كل شئ لله، ولا نعمل، فلست أدرى، لماذا يتخلى هؤلاء الناس عن مبدئهم فى أبسط الأشياء، وهو الطعام والشراب، فإذا عطش فهو يقوم ليشرب، وإذا جاع الطعام، فهو يأكل ويبذل جهدا فى تناول الطعام ومضغه، فلماذا لا يترك كل هذا لقدر الله، إذا كان المطلوب هو عدم العمل؟ ولماذا يأتى إلى هذه النقطة بالذات، ويضيف عملا إلى ما أعطاه الله ؟!.

□□□

(١) سورة القصص : من الآية ٧٧ .

وما تحت الثرى

وكان يجب أن تتنبه إلى قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾(١) وأن تعرف أن الرزق فى الأرض لا يوجد فقط فوق السطح، ولكنه يوجد أيضا تحت سطح الأرض، وتلك معجزة قرآنية بدأت تتكشف الآن، والعالم ينفق البلايين ليبحث عن الثروات الموجودة « تحت الثرى ».

نأتى اليوم إلى ختام حديث فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى عن « الله والنفس البشرية »، ذلك الحديث الذى تناول فيه علاقة النفس البشرية بخالقها، ولماذا حمل الإنسان الأمانة، وأثبت فيه أن من يجادلون فى الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما يثبتون وجوده، وأن الله جعل من المضلين إثباتا للإيمان، وأن الله حق، وأن القرآن حق.

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق لكل شئ فى الدنيا قانونا يعمل به، فالماء له قانون، والنار لها قانون، والأرض لها قانون، والنجوم لها قانون، وهذه القوانين تعمل بقدرة الله، وبإذن الله، الله ـ سبحانه وتعالى ـ قائم على ملكه، مدبر للأمر فيه، على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ فوق الأسباب والمسببات، والقوانين، وبذلك فإنه فى معجزاته لرسله قد خرق لهم القوانين، فالماء قانونه الاستطراق، ومع ذلك عندما ضرب موسى الأرض بعصاه انشق البحر وتعطل قانون الاستطراق، والنار خاصيتها الإحراق، ومع ذلك عندما ألقى إبراهيم فى النار تعطلت خاصية الإحراق، وكانت النار بردا وسلاما على إبراهيم، وقانون الحياة، أن الإنسان إذا فارقها لا يعود إليها، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خرق هذا القانون لعيسى ـ عليه السلام ـ فجعله يحيى الموتى بإذن الله، إلى آخر ما جاء فى معجزات الرسل.

على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وضع معجزات تحدى بها البشر، ومعجزات

---

(١) سورة طه : من الآية ٦ .

لم يتحـد بها أحدا، فمثلا خلق عيسى ـ عليه السلام ـ معجزة، لم يتحـد بها الله البشر، ولم يطالبهم بالإتيان بمثلها، ولكن كان المقصود بها هو إطلاق القدرة، كذلك معجزة شق موسى البحر بعصاه لم يتحد بها الله أحدا، ولكنها كانت لإطلاق القدرة.

على أن معجزات الله ـ سبحانه وتعالى ـ تختلف عما يستطيع أن يقدمه البشر، أو العلم البشرى من طاقات أو معجزات، والعلم البشرى لا يستطيع أن يخلق من الضعيف قويا، ولا من العاجز قادرا، ولكن الإنسان يستطيع أن يقوم بالعمل عن الشخص نفسه، بمعنى أننى إذا رأيت شيخا ضعيفا وأمامه حمل ثقيل، فكل ما أستطيع أن أفعله هو أن أحمل عنه هذا الحمل، أو آتى له بآلة أو (ونش) يحمله، ولكننى لا أستطيع ولا يستطيع بشر أن يبدل هذا الشخص الضعيف الطاعن فى السن بشخص قوى يستطيع هو أن يحمل هذا الحمل، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو القادر على أن يخلق من الضعف قوة، وأن يجعل الطير تهزم جيشا ضخما من الأفيال فى عام الفيل، وأن يعطى قدرة السحر لموسى فيغلب السحرة، ثم يعطيه قدرة شق البحر، فيضرب الأرض بعصاه فينشق البحر، وهو يعطى لعيسى القدرة على شفاء المرضى وإحياء الموتى بمجرد الإشارة، ويعطى لإبراهيم أن يقطع الطير، ثم يدعوها فتسعى إليه، وقد عادت إليها الحياة، كل ذلك يتم بإذن الله ومن معجزاته، ولكنه لا يمكن أن يتم بعلم بشر، ومن هنا فإنك إذا رأيت شخصا ضعيفا لا حول له ولا قوة يهزم شخصا من أقوى رجال العالم نفوذا وقوة فاعلم أن هذه معجزة من عند الله، وأنها أمر من أمر الله، ذلك أنه هو وحده القادر على أن يخلق من الضعف قوة.

وهكذا وضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ قوانين فى الأرض لكل شئ، وجعل الأسباب والمسببات فى يده، ولكن كل شئ يمضى بالقانون الذى وضعه الله له، فإذا أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بحكمة هو يعلمها أن يعطل هذا القانون، أو يأتى بعكسه، فإنه يقول: كن فيكون.

ولقد نبهنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى قرآنه إلى أشياء لم يكشفها للعقل

البشرى إلا خلال الفترة الأخيرة، فقال الله: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ**﴾[1] وكان لابد للعقل البشرى أن يتنبه لكلمة « ما تحت الثرى» إلى أن هناك كنوزا وثروات قد وضعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحت سطح الأرض، ولكن الإنسان فى وقت نزول القرآن لم يتنبه إلى الآية « وما تحت الثرى» ولم يفطن إلى أن الله قد وضع من الثروات ومن الأشياء فى باطن الأرض، بقدر ما وضعه فوق سطحها، وربما أكثر، ثم تقدم العلم، وحدثت الزلازل والبراكين، وخرج ما تحت الثرى إلى ما فوقها ليكشف للإنسان بقدرة الله عن الكنوز التى وضعها الله تحت الثرى، فعرفنا المناجم، والمعادن المدفونة فى باطن الأرض، وعرفنا البترول، وبدأ الإنسان يبحث فى معنى الآية الكريمة « وما تحت الثرى »، وفى كل يوم يكتشف جديدا لم يصل إليه علم، وهكذا كانت الآية التى ذكرها القرآن تمس حقيقة كونية كبرى هى أن الرزق فى الأرض والخير الذى وضعه الله فيها، لايوجد فقط فوق السطح، ولكنه يوجد تحت سطح الأرض أيضا، وتلك معجزة قرآنية بدأت تتكشف للعالم، والآن تقوم الدول الصناعية الكبرى بإنفاق الملايين من الأموال فى البحث عن الثروات الموجودة تحت الثرى.

على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حين وضع القوانين فى الأرض، جعلنا نعرف بعضها، وأخفى بعضها عنا، وجعل بعضها نعرفه بآثاره دون أن نصل إلى حقيقته، فالجاذبية الأرضية مثلا هى حقيقة علمية نعرف جميعا آثارها، ولكننا لا نستطيع أن نصل إليها، رغم أنها موجودة ومؤثرة فى حياتنا اليومية، فأنت حين تذهب إلى المعمل ليشرح لك الأستاذ الجاذبية الأرضية، ويأتى بقطب ممغنط، ويضعه أمامك، وقطب آخر غير ممغنط لا تستطيع أن تقول أيهما فيه الجاذبية، وأيهما ليست فيه إلا إذا قمت بالتجربة، وإذا نقلت الجاذبية من قطعة حديد إلى قطعة أخرى، فأنت لا ترى ماذا يحدث فى جزيئات القطعة التى لم تكن ممغنطة، ثم أصبحت كذلك، إنك لا ترى الجزيئات وهى تتأثر بالمغناطيسية، ولكنك حين تقرب قطعة الحديد بعد ذلك من معدن معين تجدها تجذبه، ومن هنا فإنك تعرف الشئ بآثاره دون أن

---

(١) سورة طه : الآية ٦ .

تستطيع أن تدرك ما هو. وما ينطبق على الجاذبية ينطبق على الكهرباء، فأنت لا ترى التيار الكهربائى وهو يمضى فى أحد الأسلاك، ولكنك إذا وضعت مصباحا فى آخر السلك وأوصلته به حصلت على الكهرباء، ولكن منظر السلك الناقل للكهرباء لا يستطيع أن يدلك، أو أن ينبئك إذا كان فيه تيار كهربائى أم لا.

ولقد جاءت هذه الحكمة لتقرب للعقل البشرى ما هو غيب عنه، ولكى يستطيع أن يعرف بآثاره، وذلك حتى يطمئن هذا العقل إلى أنه من الممكن أن يعرف الشئ برؤيته، ومن الممكن أن يعرفه بآثاره وأفعاله دون أن يراه، والعجيب أن عددا كبيرا من الناس يؤمن بالجاذبية، ويأخذها على أنها حقيقة علمية، ولا يجادل فيها، ثم يجادل فيما قاله الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأنه يعرفه بآثاره، دون أن يراه، وهذه هى حماقة العقل البشرى، أما ما نطلق عليه (هوى النفس) فالجاذبية الأرضية مثلا، أو الكهرباء، شئ لا يمنع الإنسان مما يريد أن يأخذه ظلما من إنسان آخر، أو مما يريد أن يستمتع به حراما، أو مما يريد أن يحصل عليه من حقوق الآخرين، أو يتميز به على الناس بغير عمل ولا جهد، ومن هنا فإن هذه الحقائق الأرضية لا تتصادم مع أهواء النفس البشرية، ولا مع شهواتنا، ولذلك فإن الإنسان يعترف بها عن رضاً واقتناع، لأنها لا تسلبه شيئا يريد تحقيقه، والطمع البشرى بلا حدود، فإذا أتينا إلى أوامر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نجد أننا بدلا من أن نأخذ بآثارها فى أنها تخلق المواطن الصالح، والإنسان الذى يسود الأرض، وتعطينا الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة، نجد أننا بدلا من أن نأخذ بهذه الآثار والنتائج، ونرى اتباع ما قاله الله صلاحا للنفس والمجتمع، وبعدا عن القلق والخوف، والحياة التى يملؤها الرعب داخل النفس، وعبادة الفرد، نحن لا نناقش كل هذا، بل نتركه محاولين أن تكون لنا عقول مساوية لقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بحيث نستطيع أن نناقش هذه الأشياء مناقشة بدون علم، وفرق هائل بين علم الله وعلم البشر، ونمضى فى طريقنا، أو يمضى بعض الناس فى طريقهم إلى أبعد من ذلك، فهم يضعون عقولهم فوق قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ محاولين كما يدعون سفها وزيفا أن يعدلوا ويبدلوا ما شرع الله، وكأنهم يملكون من القدرة والعلم ما هو فوق قدرة خالق السموات والأرض.

على أن الإنسان الذى يجادل فى قدرة الله، ويخترع النظريات، فهذه شيوعية، وهذه اشتراكية، وهذه رأسمالية، ومذاهب أخرى كثيرة يشرعونها محاولين أن يقيموا بها ـ عن جهل وسفاهة ـ مجتمعا يدعون أنه أفضل من ذلك المجتمع الذى وضع الله قواعده، وفى هذه الحالة يجب أن نفهم أن هناك نوعين من النظريات، وأن نفرق بينهما، النوع الأول هو نوع يتعب صاحبه، وتستفيد منه البشرية كلها، هذا النوع هو الاختراعات العلمية المعتمدة على الأبحاث المعملية، فالإنسان الذى يقضى سنوات طويلة من حياته داخل معمل من المعامل، ليخترع راديو، أو تليفزيونا، أو تليفونا، إنما يعانى هو حتى يصل إلى اختراعه، فإذا تم الاختراع استفادت منه البشرية كلها.

أما النوع الآخر من النظريات البشرية فهو النظريات التى تتبع هوى النفس، ففى هذه الحالة فإن صاحب النظرية هو الذى يتمتع ويقوى نفوذه، ويزداد جاها ومالا وسلطانا، بينما يعانى منها المجتمع، فأى فلسفة معينة لنظرية سياسية أو غيرها، إنما يستفيد منها صاحبها لأنها تنبع من هوى النفس، أما الذين يتبعونه فهم الذين يعانون ويكابدون، وحولنا فى الدنيا كلها، وفى كل بلد من بلاد العالم أصحاب نظريات سياسية تخالف ما شرع الله، هم يتمتعون، والشعب يعانى من الإرهاب والبطش والظلم والتعذيب.

والإنسان فى هذا الذى يشرعه إنما ينسى خلقه، وإعجاز الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الخلق، فلو أن الإنسان عرف أن قدره وحياته، وهل هو شقى أم سعيد، وكل ما سيصيبه فى الحياة الدنيا إلى يوم الساعة مكتوب على نطفة صغيرة لايمكن أن ترى بالعين المجردة، لعرف وعلم مدى قدراته بالنسبة لقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى وضع كل هذا العلم فى شئ لا يصل حجمه إلى جزء صغير من المليمتر، ولعرف أن سجل حياته كلها موجود فى هذا الحيز الضيق بقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ونحن حين يخترع إنسان جهازا صغيرا دقيقا يمكن أن يؤدى عمليات معقدة مع صغر حجمه نهلل لهذا الاختراع، ولكننا فى الحقيقة يجب أيضا أن نسجد لقدرة الله الذى استطاع أن يضع كل حياة البشر فى حيز لا يذكر، وأن

نعرف أننا مع تقدم العلم هناك فرق رهيب، بين القدرة البشرية، وبين قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ التى يحاول الإنسان أن يجادل فيها.

وإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد كتب على نفسه الرحمة فلأنه خبير بعباده، لطيف بهم، فكفر إنسان بربه جريمة يستحق عليها عذاب الدنيا والآخرة، ولكن الله فى رحمته بخلقه يفتح باب التوبة مرات ومرات، ويغفر ويسامح، ويعطى الإنسان الفرصة بعد الفرصة حتى ساعة الموت، عله يدرك الإعجاز فى هذه الدنيا، ويدرك عجزالعقل البشرى أمام قدرة الله.

على أن النفس البشرية فى حياتها كلها متعلقة بالله ـ سبحانه وتعالى ـ حتى تلك النفس التى ظلمها صاحبها فهى تتوق إلى الله وتسعى إليه، وفى لحظات عندما تجد نفسها عاجزة أمام قدرته، ترفع يديها إلى السماء وتصيح: يارب، ويكون عدلا ألا تفتح أبواب السماء، ولكن رحمة الله تفتح أبواب السماء وتتنزل على العاصين لتريهم طريق التوبة. والله نسأل أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم .

□□□

فهرس الكتاب

* * *

محمد متولي الشعراوي



العربية للنشر والتوزيع /ت: ٢٢٠٥٥٠٠